

العدد الثاني

شباط 2021 - رجب 1442

مجلة فصلية

تعنى بموضوعات

العلوم الإنسانية والنصوص الأدبية

منهل فكر وثقافة

ملف العدد

العلامة
محيي الدين عبد الحميد

٢



العدد الثاني
شباط 2021 - رجب 1442



مجلة فصلية

تعنى بموضوعات العلوم الإنسانية

والنصوص الأدبية

تحرير

عمر ماجد السنوي

حسن طلال الرمضاني

الإخراج الفني

عبد الحليم مهدي

صدرَ هذا العدد بدعم من أحد المحسنين شكرَ الله له.

منهل فكر وثقافة



محتويات العدد



افتتاحية العدد

بأقلام الفرح ومداد الحب نسطِّر هذه الفاتحة للعدد الثاني من مجلتكم (روى)، فقد لاقى العدد الأول من القبول والثناء والاحتفاء ما تقر به العين، وينشرح له الصدر، وأقبلَ مِن أصحاب الأقلام مَن أقبل للنشر، حتى فاضت المشاركات، فتأجَّل نشرُ بعضها إلى عددٍ قادم، وبعضها قُدِّم لأهله الاعتذار عن النشر، على أمل أن يتحفونا بما يناسب النشر في قابل الأعداد -إن شاء الله تعالى-.

فلا يسعنا إلا أن نزجي للمشاركين الشكر الوفير وصادق التقدير، كما نُجدِّد الشكرَ لمن استجاب لاستكتابنا مِن أكارم العلماء وأفاضل الأساتيذ، أدامَ الله عطاءَهم، وحقَّق النفْعَ بهم، وزادَهم من فضله.

وقد تنوعت مشاركات هذا العدد في مجالات النقد الأدبي، والفكري، والديني، وفي اللغة، والنحو، والبلاغة، والعَروض، والتأريخ، والسيَر؛ وتوزَّعت على الأقسام الثلاثة: الدراسات، والمقالات، وعالَم الكتُب. أما القسم الرابع المتزيِّن بزينةِ الأدب، فقد طغت فيه روح الشعر على روح النثر.

ونُلفت نظر القراء الكرام إلى أنّ بين صدور العدد الأول والثاني مرَّت ذكريات ومناسبات، فتحَت على الكتّاب والأدباء موضوعاتٍ سخّروا لها أقلامهم، منها: ذكرى سقوط غرناطة آخر مدائن الكنز المفقود، وذكرى الشاعر العظيم بدر شاكر السياب، وذكرى شيخ شيوخ العربية محيي الدين عبد الحميد؛ فكان للأخير النصيب الأوفر، بحيث صارت ذكراه عنوانَ مَلفِّ هذا العدد، كتبَ فيه واستكتبَ له حفيدُه: الأستاذ الكريم عصام الشتري.

وأما ذكرى الاحتفاء باللغة العربية، فنعتقد أن المجلة برمّتها تجسِّد احتفاءً عمَليًا بها، وهو احتفاءٌ لا يقتصر على موسمٍ دون آخَر.

التحرير

القسم الأول

الدراسات



المكتبة العربية ببغداد لصاحبها نعمان الأعظمي

(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/ ١٨٨٨-١٩٥٠م)

إعداد: عادل عبد الرحيم العوضي

تحتوي مدينة بغداد على مجموعة من الأسواق القديمة التاريخية التي يعود تاريخ بنائها إلى عهد الدولة العباسية، ومن تلك الأسواق (سوق السراي)[١]، وهو سوق مسقوف، يوازي نهر دجلة، ويشكّل مع شارع المتنبي الذي يربط شارع الرشيد بنهر دجلة زاويةً قائمة، ويُعرف هذا السوق حاليًا بتجارة القرطاسية (الدفاتر والأوراق والكتب المدرسية...).

وقد قام أمين الريحاني[٢] بوصف هذا السوق في كتابه (قلب العراق رحلات وتاريخ)[٣]، بقوله: (وفي السوق المسقوف -سوق السراي- مرجة للأدب خضراء صفراء هي الدكاكين التي تباع فيها الكتب والمحلات).

وكما هو الحال في كل سوق له رجالاته ورواده، تجد منهم من يحفر اسمه في السوق حتى بعد إغلاق محله بسنوات، فتجد الآباء يحكون لأبنائهم عنه، والكاتب الذي يكتب عن الحياة في ذلك السوق لا مَناص من أن يذكره بشيء من التفصيل أو يقتصر على بعض أخباره.

(١) عُرف بهذا الاسم نسبة إلى السراي (دار الحكومة) والذي كان واحدًا من أبرز المعالم العمرانية الرسمية في مدينة بغداد. وللمزيد من التفاصيل انظر: (أثر منطقة السراي في العراق ثقافيًا - بحث ميداني) لطيف ماجد المشهداني، مجلة كلية التربية الأساسية، (ع٥٣-٥٥، ص١٦١-١٩٧).

(٢) (أمين بن فارس بن أنطون بن يوسف بن عبد الأحد البجّاني، المعروف بالريحاني (١٢٩٣ - ١٣٥٩هـ = ١٨٧٦ - ١٩٤٠م) كاتب خطيب، ولد بالفريكة (من قرى لبنان)، ورحل إلى أميركا، ولم يستمرّ، وعاد إلى لبنان (سنة ١٨٩٨م)، فدرس شيئًا من قواعد العربية، كما انتخبه المجمع العلمي العربيّ عضوًا مراسلًا (سنة ١٩٢١م) ومات في قريته التي ولد بها. من كتبه: (الريحانيات) مقالاته وخطبه، و(ملوك العرب). انظر: الأعلام (ج٢ ص١٨-١٩).

(٣) (ص٦٠).

THE ARABIC LIBRARY OF
THE LIBRARIAN
NOMAN EL-AAZAMI
BAGHDAD

المكتبة العربية - بغداد تأسست في عام
لصاحبها: نعمان الأعظمي ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٥ م

ومن هؤلاء: نعمان الأعظمي، الكتبي، صاحب (المكتبة العربية)، من أقدم الكُتُبيين بسوق السراي[١]، وشيخ الكتبيين والمجلدين وأشهرهم[٢].

اسمه ومولده ونشأته:

هو نعمان بن سلمان بن محمد صالح بن أحمد بن سلمان بن نعمان داود بن سلمان الأعظمي[٣]، ولد في محلّة الشيوخ في الأعظمية (١٣٠٦هـ-١٨٨٨م) ودرس في كتاتيبها ومدارسها الابتدائية وكان من المتفوقين، وبعد وفاة والده فتح بسوق السراي في بغداد عام (١٩٠٥م) محلًا للتجليد[٤] وهو في الوقت نفسه مكتبة لبيع الكتب، سماها بعد الاحتلال البريطاني: المكتبة العربية، حيث أصبحت أشهر مكتبة في العراق والوطن العربي، وكانت أكبر مكتبة في سوق السراي والعراق كافة[٥]، وكانت هذه المكتبة من أشهر دور الكتب، ومنتدى لرجال الفكر والعلم والأدب.

كان الأعظمي من العارفين بالكتب، ذوّاقًا باختيار ما ينشره ويطبعه من الكتب القديمة، بل كان الوحيد الذي يفهم هذا الفن ويعتني بتسويق الكتاب المخطوط وعرضه، وكان ذلك نتاج الممارسة الطويلة، ورحلاته الكثيرة إلى مصر وإيران، وكان الوحيد الذي يستورد الكتب، وكانت له علاقات واسعة في تلك الفترة مع مكتبات خارج العراق في مصر، وتونس، والهند، وبرلين، ولندن، وباريس، وغيرها، ويتبين ذلك من خلال الرسائل والوثائق المتعلقة بالمكتبة[٦].

---

(١) ويؤكد عدد من الباحثين في تاريخ بغداد أن أقدم كُتبيٍّ في سوق السراي هو الملا خضر، انظر: مذكرات قاسم الرجب (حاشية ص٥٦)، بغداد القديمة، عبد الكريم العلاف، (ص٥٩).

(٢) انظر: مباحث في أوائل المطبوعات، (ص٩٨).

(٣) نعمان الأعظمي اسم ينطبق على رجلين من أعظمية بغداد، الأول صاحب الترجمة، والثاني هو نعمان بن أحمد بن إسماعيل الأعظمي (١٢٩٣-١٣٥٩هـ/١٨٧٦-١٩٤٠م) عالم مشارك، انظر: الأعلام (ج٨ ص٣٥).

(٤) (وكان تعلمه للتجليد في كلية الإمام الأعظم حيث كان التجليد من جملة الدروس، وكان يرى أن التجليد عملية ملازمة للكتاب فهي تعطي الكتاب الجمال والرونق والمتانة، وممن تعلم التجليد على يديه شقيقه محمد، والأسطى محمد إسماعيل الشيخلي). مباحث في تاريخ أوائل المطبوعات، (ص١٠٠-١٠١).

(٥) كان السوق زاخرًا بالمكتبات الصغيرة والكبيرة، أمثال المكتبة الوطنية لعبدالحميد زاهد، والمكتبة العصرية لمحمود حلمي، ومكتبة التجدد لحقي بكر صدقي، ومنهم من يعرض بضاعته على الرصيف مثل حسين الفُلفُلي. انظر: مذكرات قاسم الرجب، (حاشية ص٣٧-٣٨).

(٦) مذكرات قاسم الرجب، (ص٣٨-٣٩)، مباحث في أوائل المطبوعات، (ص١٢٠-١٢٢).

وكان يشجع على فتح المكتبات في جميع أنحاء العراق، ويساعد على ذلك، ويساهم فيه كثيرًا، ويمد أصحابها بالكتب والمؤلفات، كمكتبة الجامعة بالبصرة، والمكتبة العربية بالموصل، وفي غيرها ببغداد وخارجها، كالكاظمية، والأعظمية، وكركوك[١].

وهو من أوائل الناشرين العراقيين، وكان يُحسن اختيار الكتب التي يتولى طبعها ونشرها، ولا يوجد مَن يضارعه في ذلك، وكان جل اهتمامه ورغباته إحياء ما يتعلق بتاريخ العراق ولا سيما بغداد[٢].

سردَ مؤلفُ كتاب (مباحث في أوائل المطبوعات والمكتبات العراقية)[٣] كلَّ مطبوعات المكتبة العربية التي طبعها داخل العراق وخارجها، والتي هي باللغة العربية والكردية والفارسية، فبلغت (١٣٧) عنوانًا، وكان يطبع الكتب على نفقته الخاصة بالمطبعة السلفية بمصر[٤] حيث كانت له حصة فيها. أما في العراق فكان يطبع لدى مطبعة الفرات قبل أن يؤسس المطبعة العربية عام ١٩٤٧م[٥].

الكتب النادرة (٤)

نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق

تأليف

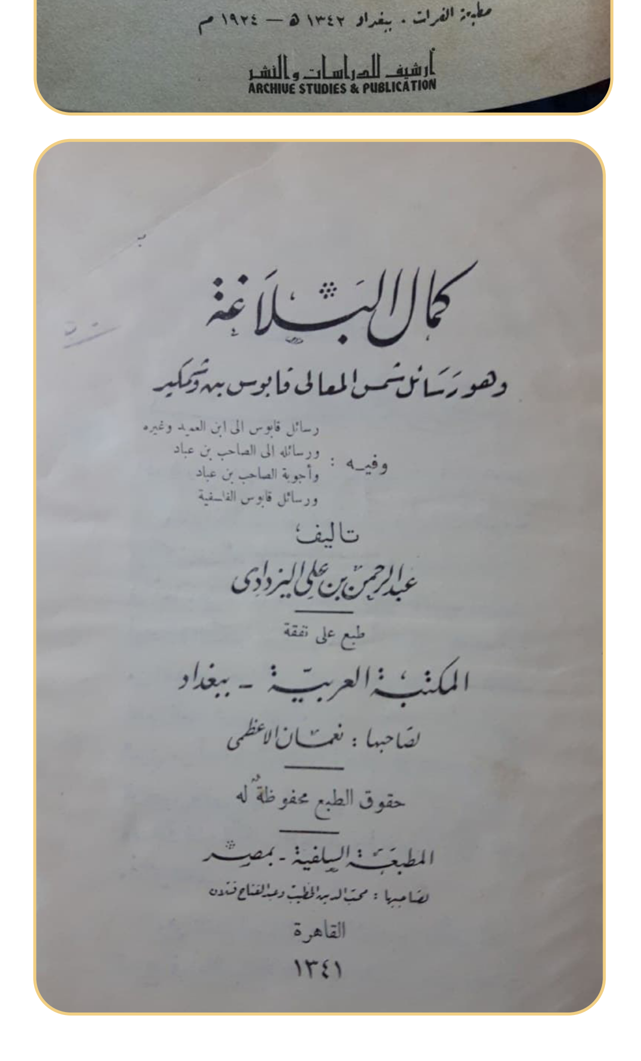
يوسف رزق الله غنيمة

حقوق اعادة الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

طبعت لحساب نعمان الاعظمي صاحب المكتبة العربية ببغداد

مطبعة الفرات . بغداد ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م



كمال البلاغة

وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير

وفيه : رسائل قابوس الى ابن العميد وغيره
ورسائله الى الصاحب بن عباد
وأجوبة الصاحب بن عباد
ورسائل قابوس الفلسفية

تاليف

عبد الرحمن بن علي اليزدادي

طبع على نفقة

المكتبة العربية - ببغداد

لصاحبها : نعمان الاعظمي

حقوق الطبع محفوظة له

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة

١٣٤١

---

(١) مباحث في تاريخ أوائل المطبوعات، (ص١٢٥-١٢٦).

(٢) مذكرات قاسم الرجب، (ص٤١، ٤٧).

(٣) (ص١٢٩-١٤٣).

(٤) المطبعة السلفية ومكتبتها أنشأها محب الدين الخطيب (١٣٠٣ - ١٣٨٩ هـ = ١٨٨٦ - ١٩٦٩ م) وأشرف على نشر العديد من كتب التراث وغيرها. انظر: الأعلام (ج٥ ص٢٨٢).

(٥) مباحث في أوائل المطبوعات، (ص١٢٨).

من أبرز مطبوعاته:

١- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

ذكرَ قاسم الرجب في (مذكراته) أنه (في سنة ١٩٣٠-١٩٣١ بدأ نعمان الأعظمي بنشر كتاب عظيم هو تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب أحمد بن ثابت البغدادي، وكان الكِتاب يُعد من الكتب المفقودة، فعَثر عليه محمد أمين الخانجي عند تجواله في المكتبات الشرقية والأوروبية، وباشر بنشره بالاشتراك مع مطبعة السعادة بمصر، ونعمان الأعظمي ببغداد، وأشرف على تخريج أحاديثه الشيخ حامد الفقي، وبعض المشايخ من العلماء بمصر بإشراف الخانجي نفسه...)[١].

٢- الحوادث الجامعة، والتجارب النافعة، في المئة السابعة.

نُسب إلى كمال الدين ابن الفوطي، ونُشر بتحقيق مصطفى جواد[٢]، وهذا الكتاب أهداه الأعظمي بنفسه إلى ملك العراق فيصل الأول[٣]، وصدَّره بكلمة إهداء كتبها نعمان ثابت[٤].

٣- طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق الشيرازي.

ومعه: طبقات الشافعية، للحسيني.

٤- المفكرة العربية.

وهي من أشهر المفكرات وأوسعها انتشارًا، وكان ينظّمها أحد خطباء المساجد في مدينة بعقوبة، يُدعى عبد الحميد الزيدي.

---

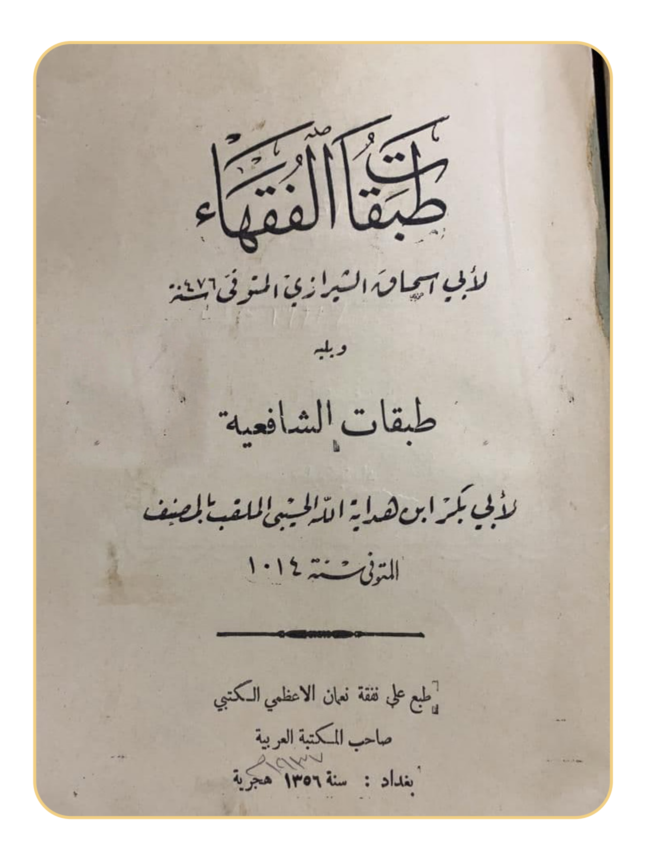
(١) مذكرات قاسم الرجب، (ص٤٦).

(٢) مصطفى جواد بن مصطفى بن إبراهيم البغدادي (١٣٢٣ - ١٣٨٩هـ = ١٩٠٥ - ١٩٦٩م) أديب مدرس، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق وبغداد مولده ووفاته ببغداد. وتعلم ببغداد وبالقاهرة ثم بالسوربون في جامعة باريس. وتولى التدريس في مدارس آخرها دار المعلمين العالية (كلية التربية) وصنف عدة كتب ونشر كثيرًا من المقالات في المجلات. انظر: الأعلام (ج٧ ص٢٣٠).

(٣) فيصل بن الحسين بن علي الحسني الهاشمي، أبو غازي (١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ = ١٨٨٣ - ١٩٣٣م). من أشهر ساسة العرب في العصر الحديث. ولد بالطائف، وترعرع في خيام بني عتيبة في بادية الحجاز. نودي «ملكًا للعراق» سنة (١٣٣٩هـ = ١٩٢١م) فانصرف إلى الإصلاح الداخلي، وأصلح ما بين العراق وجيرانه. توفي بالسكتة القلبية في سويسرا، ومما كتب في سيرته «فيصل الأول» لأمين الريحاني. انظر: الأعلام (ج٥ ص١٦٥-١٦٦).

(٤) نعمان ثابت بن عبد الطيف (١٣٢٣ - ١٣٥٦ هـ = ١٩٠٥ - ١٩٣٧ م) ضابط عراقي، من أهل بغداد، أولع بالأدب وصنف كتبًا أكثرها رسائل بقيت مخطوطة عند أسرته. وتوفي في حادث طائرة عسكرية عراقية قامت للاستطلاع في فضاء السماوة. ومن كتبه «الجندية في الدولة العباسية - ط» و«جواسيس الجبهة أو ذكريات ضابط استخبارات ألماني - ط» ترجمه عن الألمانية. انظر: الأعلام (ج٨ ص٣٦).





طبقات الفقهاء

لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦

ويليه

طبقات الشافعية

لأبي بكر ابن هداية الله الحسيني الملقب بالمصنف

المتوفى سنة ١٠١٤

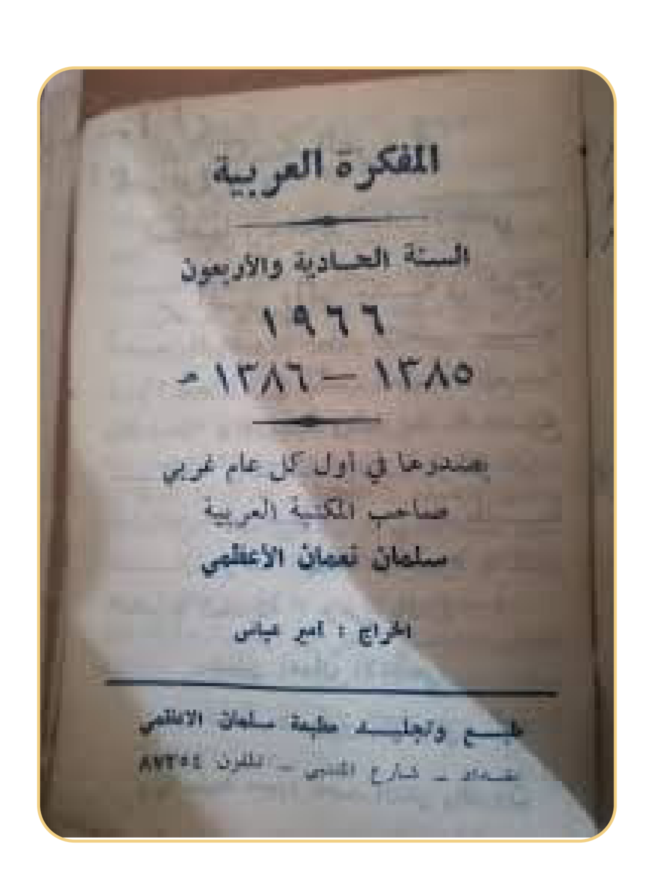
طبع على نفقة نعمان الاعظمي الكتبي

صاحب المكتبة العربية

بغداد : سنة ١٣٥٦ هجرية

وكان الأعظمـيُّ أوَّلَ مَـن عمِـل الكَلايِـش[1] في العـراق للمصحـف، وعملهـا في المطبعـة السـلفية بمـصر.

وإلى جانـب عملـه في نـشر الكتـب، فقـد كان لـه حـظ مـن التأليـف، فجمـع ديوانًـا طُبـع سـنة (١٩٢٧م) بعنـوان (مناجـاة الحبيـب في الغـزل والنسـيب)[2] يشـتمل عـلى أهـم القصائـد الغزليـة، والأبيات الغرامية للشـعراء الأقدمـين والعصريين، قـال في مقدمتـه: (فلـما رأيـت الأدب قـد راج في هـذا العـصر، وشـاهدت الإقبـال قـد ازداد عـلى



المفكرة العربية

السنة الحادية والاربعون

١٩٦٦

١٣٨٥ — ١٣٨٦ هـ

يصدرها في أول كل عام عربي

صاحب المكتبة العربية

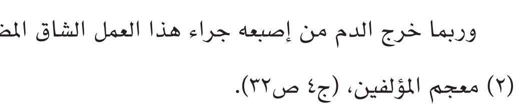
سلمان نعمان الأعظمي

طبع وتجليد مطبعة سلمان الاعظمي

بغداد — شارع المتنبي

النظـم والنـثر، دعـاني ضمـيري أن أهـدي إلى أدبـاء شـبابنا وفضـلاء كهولنـا هـذا الديـوان)، والأعظمـي كـوَّن لنفسـه ثقافـة تـكاد تكـون عاليـة جـدًا جـرّاء احتكاكـه بالنخبـة المثقفـة في العـراق، وبسـبب سـفراته إلى خـارج العـراق.

وأشـهر مَـن عمـل في المكتبـة العربيـة: قاسـم محمـد الرجـب[3]، صاحـب مكتبـة المثنـى ببغـداد، عمـل فيهـا مدة سـبع سـنوات، وكانت بدايـة العمل في عـام (١٩٣٠م)، وتربطـه بنعـمان صلـةُ قُـربى وصلـةُ جِوار.



(١) أيْ: قالب للطباعة، ويَذكر الرجب (ص٤٣) أنه كان مع الأعظمي يقومون بترتيب المَلازم الخاصة بجزء (عم) والألف باء، ويقومون بتغليفها، وعند اكتمالها يقوم الأعظمي بقصها بيده بواسطة المقص، وربما خرج الدم من إصبعه جراء هذا العمل الشاق المضني.

(٢) معجم المؤلفين، (ج٤ ص٣٢).

(٣) قاسم بن محمد الرجب (١٣٣٧ - ١٣٩٤ هـ = ١٩١٩ - ١٩٧٤ م) كتبي. مؤسس «مكتبة المثنى» ومجلة «المكتبة» ببغداد. مولده بالأعظمية. كان من أنشط الكتبيين، كثير التنقل في بلدان المشرق والمغرب. وأخرج بالأوفست، عددًا كبيرًا من نوادر المطبوعات القديمة، توفي ببيروت ودفن ببغداد. انظر: الأعلام (ج٥ ص١٨٥).

وكانت للأعظمي عادات في البَيع، فإذا باع كتابًا تغزّل به.

ومن عاداته أنه يطرق المجلد بالآخر ليظهر صوتًا، ويصيح (كل الصيد في جوف الفرا).

كما أنه إذا اشترى كتابًا من المزاد أو من بعض الناس، لا يعرضه للبيع إلا بعد مدة، والسبب في ذلك أن سعره يبقى عالقًا في أذهان الناس[1].

نعمان الأعظمي والمخطوطات:

سبق أن ذكرنا بأن نعمان الأعظمي كان يعتني بتسويق الكتاب المخطوط والمطبوع، ومن أسباب إلمامه التقاوه بخبير المخطوطات السيد محمد أمين الخانجي الذي كان يُعَدّ الورّاق الوحيد في العالم العربي، وكان الأعظمي كغيره من تجّار الكتب يعمل في تجارة المخطوطات، وكانت المخطوطات تصل إلى بغداد من كربلاء والنجف، وكانت من أجود ما يُعرض من المخطوطات وأندرها، فكان الكتبي مهدي رئيس وغيره يعرضونها على الأعظمي وغيره[2].

وذكرَ أنه سافر ذات مرة إلى إيران فاشترى بعض المخطوطات، ولما عاد احتُجزت منه على الحدود، ولم يتمكّن من إخراجها وإعادتها، ولكنه عند عودته أخبر المحامي أحمد حامد الصراف[3] بما وقع له، ولكي يتوسط له عند السلطات الإيرانية بحكم علاقاته الودية بالكثير منهم، اشترط على نعمان أنه إن وُفِّق إلى إعادة المخطوطات فله أن يأخذ أحدها، ويختار ما يعجبه منها، فوافق الأعظمي، ونجح المحامي في مَساعيه، واختار منها (ديوان حافظ شيرازي) المُحّلى بالذهب، إلا أنه عاد وباعه على الأعظمي[4].

وكان الأعظمي يستنسخ المخطوطات، فقد استنسخ مخطوط (رشف الزلال في السحر الحلال) للسيوطي، ونسخ منه لعبد الستار القَرَغولي، وباع الأصل للشيخ فالح الصيهود[5] وكان الأخير من زبائن الأعظمي.

كما أني وقفتُ على ختم للأعظمي على إحدى المخطوطات في مكتبةٍ أوروبية:

(١) مذكرات قاسم الرجب، (ص٤٢-٤٣).

(٢) مذكرات قاسم الرجب، (ص٣٩، ١٠١).

(٣) هو أحمد بن حامد بن موسى بن أحمد الصراف، ولد في كربلاء سنة (١٩٠٠م)، تخرج في كلية الحقوق سنة (١٩٢٥م)، وشغل وظائف الادعاء العام، والتدوين القانوني، وترأس المحكمة الكبرى في الرمادي والناصرية، من أشهر أعماله: ترجمة رباعيات الخيام، وله كتاب (بغداد قديمًا وحديثًا)، وله عدة مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها. انظر: مجالس الأدب في بغداد، لحسين حاتم الكرخي، هامش (ص٣٦٩).

(٤) مذكرات قاسم الرجب، (ص١٠١-١٠٢).

(٥) فالح بن صيهود بن منشد الخليفة، ولد عام (١٨٥٠م)، من رؤساء قبيلة البو محمد، تمرد عام (١٩٠٩م) على الدولة فنفي إلى الحويزة عام (١٩١١م)، وأعيد بعد ذلك، كان قوي البنية، ضخم الجثة، شديد الأسر، عمِّر ٩٠ سنة، وتوفي عام (١٩٤٠م).

ويذكر الرجب بأنه كان يهتم كثيرًا بالكتب وكانت في مكتبته نسخة خطية جيدة فريدة جميلة الخط من كتاب (جامع اللذة) لابن السِّمسماني.

انظر: أعلام السياسة في العراق الحديث، (ج٢ ص٣١٤)، مذكرات قاسم الرجب، (ص١٠٩-١١١).



(في الأعلى: إدارة المكتبة العربية، وفي الأسفل من اليسار: N AAZAMI، وفي الطرفين: هلال ونجمة، ومن اليمين تحت الهلال -حسب تقديري-: بغداد، وفي الوسط: نعمان الأعظمي).

وكان الأعظمي في سفرته السنوية إلى مصر يشحن معه ما جمعه من المطبوعات الحجرية، ومطبوعات بغداد، والمخطوطات ليعرضها بمصر والشام، أو يبدلها بمطبوعات، فقد كانت الكتب الخطية لا سوق لها في العراق، وكان الهاوي الوحيد لشراء المخطوطات في العراق آنذاك المحامي عباس العزاوي[1]، وكان الأعظمي لا يعرض عليه إلا بعض ما يحصل عليه، وأما الجيّد فيرسله إلى مصر[2].

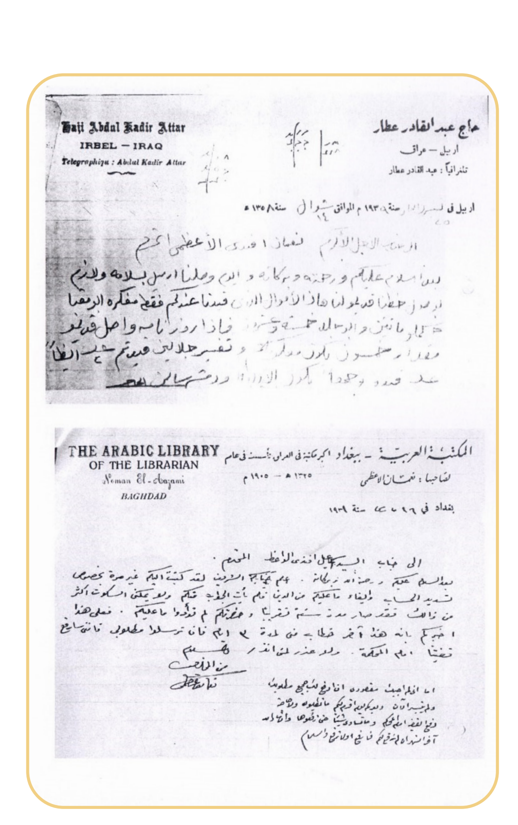
(١) عباس بن محمد بن ثامر البايزي العزاوي، ولد سنة (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م)، تخرج في مدرسة الحقوق، وعمل في المحاماة أربعين سنة، وجمع مكتبةً عظيمة، وصنف كتبًا، منها (تاريخ العراق بين احتلالين)، و(تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية) وغيرها، توفي سنة (١٣٩١هـ/١٩٧١م). انظر: الأعلام، (ج٣ص٢٦٦).

(٢) مذكرات قاسم الرجب، (ص٣٩).

وفاته:

توفي نعمان الأعظمي بتاريخ ١/ ٣/ ١٩٥٠م، وتولى إدارة المكتبة مِن بعده ابناه: سلمان ومنذر، وذلك إلى بداية السبعينات، وبعد ذلك استمر ابنه سلمان في إدارة المطبعة، وتغير اسمها إلى مطبعة سلمان الأعظمي، أما شقيقه منذر فاشترى مطبعة الزوراء وتفرغ لها ونقل المكتبة من مكانها في رأس سوق السراي إلى وسط سوق السراي[3].

ملحق فيه نموذج من الرسائل المتبادلة:



Haji Abdul Kadir Attar
IRBEL — IRAQ
Telegraphique : Abdul Kadir Attar

حاج عبد القادر عطار
اربيل — عراق
تلغرافياً : عبد القادر عطار

THE ARABIC LIBRARY
OF THE LIBRARIAN
Noman El-Aazami
BAGHDAD

المكتبة العربية - ببغداد أكبر مكتبة في العراق تأسست في عام ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٥ م
لصاحبها : نعمان الأعظمي

(٣) مباحث في أوائل المطبوعات، (ص١٢٧).



دعاوى المستشرقين في العروض العربي

د. عمر علي خلوف

(١-٣) المقاطع اللغوية:

تأثُّرًا بالأبحاث الصوتية الحديثة، ودعوات المستشرقين، فقد دعَتْ بعض الدراسات العروضية الحديثة إلى استخدام (المقاطع اللغوية) بدل (المتحرك والساكن) في تحليل الإيقاع الشعري. حيث يرى هؤلاء أن مصطلحَ (الساكن) في العروض ليس دقيقًا، لأنه يدلّ على شيئين مختلفين هما: (الأحرف الصامتة) كالهمزة والباء، و(الحركات الطويلة) المدود، بينما يُفرّقُ مصطلح المقطع اللغوي بينهما.

ومعلوم أن (الأصوات) في اللغة العربية ثلاثة أنواعٍ هي:

١- الحركات القصيرة؛ وهي (الفتحة والضمّة والكسرة).

٢- الحركات الطويلة؛ وهي المدود (الألف والواو والياء). وهي تُعادل زمنيًّا مقدارَ حركتين قصيرتين.

٣- الصوامت؛ وهي أصوات الحروف الأخرى، كالباء والتاء والثاء...إلخ.

ومن المعروف في العربية أيضًا أنّ أيًّا من (الحركات) أو (الصوامت) لا يمكن أن يقوم بذاته أبدًا. ولا بدَّ لأحَدِهما من وجود الآخر، حيث تشكّل (الحركاتُ مع الصوامِتِ) نوعين رئيسين من (المقاطع اللغوية) ذات الكيان المستقلّ، وهما:

١- **المقطع القصير:** ويتألف من (صامت+حركة قصيرة) نحو: (بَـ، بُـ، بِـ). ويرمزون له بالرمز (ن).

٢- **المقطع الطويل:** وهو نوعان (متساويان زمنيًّا):

أ - المفتوح: ويتألف من (صامت+حركة طويلة) نحو: (با، بو، بي).

ب- المغلق: ويتألف من (صامت+ حركة قصيرة+ صامت) نحو: (بَلْ، بُدْ، بِتْ).

ويرمزون إليهما معًا بالرمز (-) دون تفريق.

والعاتبون على الخليل يتوهّمون أنه يعدّ الوزنَ «**تتابُعًا في الحرَكات والسَّكَنات**»، وأنه «**لم يدلّنا على وحدة الكلام وهي المقطع**» لأنه «لم يفطْن [كذا] إلى أن الحروف الصائتة القصيرة [**الحركات**] تُكوِّن مع الحرف الصامت الذي توضع فوقه كحركة مقطعًا تامًّا مستقلًا، ولهذا اكتفى في تقطيع التفعيل بالحروف التي تُكتب، مُمَيّزًا بينها بالحركة والسكون» كما يقول مندور.

وهذا إطلاقٌ للكلام على عواهنه.

فالخليل رحمه الله تعالى كان يعدّ الوزنَ تتابعًا في «**المتحركات والسواكن**»، لا تتابعًا في (الحركات والسكنات) كما يقول مندور، وفرقٌ كبيرٌ بين الاصطلاحين وإن أدّيا معًا ذات المهمة في تحديد الأوزان.

فلقد عرَفَ الخليلُ (الحركات) كما عرفَ (الصوامت) وميَّزَ بينهما. لأن المتحرِّكَ عنده هو: «**كلُّ حرفٍ مضمومٍ أو مكسورٍ أو مفتوح**»، فهو: «**حرفٌ وحركة**» كما يقول الأخفش.

وعرَفَ الخليل أيضًا أن «**الحركةَ لا تكون إلاّ في حرف**»، فلا قِيامَ لأحدهما بدون الآخر.

بل عرفَ أكثر من ذلك؛ فبيّن أن الحرفَ المتحركَ ذاته (المقطع القصير) لا يُحقّقُ وجودَه إيقاعيًّا إلاّ عندما يندمج مع غيره، مكوِّنًا معه كياناتٍ مستقلّةً هي: (السبب والوتد والفاصلة). يقول الأخفش: «**وأقلّ ما ينفصل من الأصوات... حرفان**»؛ متحركٌ فساكن، ولا يمكنك «**أنْ تُفْرِدَ من الأصوات أقلّ من ذا... نحو: (ها) و(قَطْ)**».

ولقد نسيَ هؤلاء أنّ الخليلَ رحمه الله كان -في عَروضه- يتعامل مع الأوزانِ (إيقاعيًّا) لا (لغويًّا). ولذلك فهو لم يكتفِ -في تقطيع التفعيل- بالحروف التي تُكتب كما ادّعى مندور، لكنه أغفلَ شكلَ الكتابةِ تمامًا، وعَوّلَ على (الأصوات) الجارية على اللسان، المسموعة في الآذان.

أضف إلى ذلك أن الخليلَ لم يكن يرمز إلى (الحركات)، ولكنه رمَزَ إلى: (المتحرّكات)، أي إلى: (المقاطع)، لأنّ الرمز (/) كان يعني عنده (حرفًا متحركًا).

وواضح طبعًا أن (المقطع القصير) هو ذات (المتحرك) في العروض الخليلي، لا يزيد عليه ولا ينقص .

بينما يُقابل (المقطع الطويل) -بنوعيه؛ المفتوح والمغلق- (السببَ الخفيفَ) عند الخليل، دون تفريقٍ بين النوعين.

- ونظرًا (للتعادل الزمني) بين المقطعين: (المغلق والمفتوح)؛
- ونظرًا إلى أن الحركةَ الطويلةَ تُعادل حركتين قصيرتين؛

فإنّ المقطع المفتوح يساوي: (صامت+حركة قصيرة+حركة قصيرة) أي: (متحرك+حركة قصيرة).

بينما يُساوي المقطع المغلق: (صامت+حركة قصيرة+ صامت) أي: (متحرك+صامت).

وبالتالي تتعادل الحركة القصيرة مع الصامت (زمنيًّا).

فكأن الحركة القصيرة التي ينتهي بها المقطع المفتوح حرفٌ صامت (أي: ساكن).

لذلك فإن إحساسَ الخليل بكون المقطع المفتوح -كالمغلق- يُساوي: (متحركٌ فساكن) هو إحساسٌ صحيح، سيما وأنه يَدْرس (إيقاعَ الأوزان) لا (اللغة) كما أشرنا آنفًا.

بل إن الرمزَ (ه/) -وإنْ كانَ ثُنائيَّ الإشارة- كان يعدّه الخليل مقطعًا تامًّا مستقلاً سمّاه: (السبب الخفيف).

وهو في رأينا أفضل من الرمز المفرد الإشارة (-) الذي يستخدمه المعاصرون، لأنّ رمز السبب الخفيف يدلُّنا على ما يتألف منه المقطع من جهة، ويُنبّهنا عند الزحاف إلى أن ما سقطَ منه هو الساكن، وما بقيَ هو المتحرك.

ولا بأسَ عندنا من استخدام **(المقاطع اللغوية)** -أحيانًا- لتفسير بعض الظواهر اللغوية في الشعر، إلاّ أن كفّةَ **(المقاطع العروضية)** ترجح عندنا في دراسة الإيقاع في الشعر.

فمن المعلوم أن الحرفَ المتحركَ المفردَ يُشكِّلُ غالبًا مع السبب الذي يليه (مقطعًا عروضيًّا) ثابتًا لا يتزحزح بزحاف (//ه)، مما يجعله عمادَ الإيقاعِ في الشعر، وهو ما سّماه الخليل (بالوتد).

ولذلك تُعدّ **(مستفعلن /ه /ه //ه)** عكسَ **(مفاعيلن //ه /ه /ه)** إيقاعيًّا، حيث تتركّب الأولى من سببين فوتد، بينما تتركب الثانية من وتدٍ فسببين.

كما تُعدّ **(فاعلن /ه //ه)** عكسَ **(فعولن //ه /ه)**

و**(متَفاعلن ///ه //ه)** عكسَ **(مفاعَلَتن //ه ///ه)** لنفس السبب.

وأمّا بطريقة **(المقاطع اللغوية)**؛ فينشطر الوتد إلى نصفين،

فتصبح **(مستفعلن /ه/ه//ه)** عكس **(فاعلاتن**

/ه//ه/ه)، لأنّ الأولى تتألف من مقطعٍ (طويل+طويل+قصير+طويل)، بينما تتألف الثانية من مقطعٍ (طويل+قصير+طويل+طويل).

كما تصبح (مفاعيلن //ه/ه/ه) عكسَ(مفعولاتُ /ه/ه/ه/)، و(فعولن //ه/ه) عكس (مفعولُ /ه/ه/)..

وأسوأ من ذلك أن تصبح (فاعلن /ه//ه) عكس ذاتِها!

فإنْ صحَّ ذلكَ في الدرس اللغوي (مقطعيًّا)، فمن غير الممكن أن يصحَّ (إيقاعيًّا) كما ترى.

(٢-٣) النَّبْر اللغوي:

وتأثرًا بأبحاث المستشرقين أيضًا، فقد دعت بعض الدراسات العروضية الأخرى إلى تحليل إيقاعِ الشعر العربي اعتمادًا -مطلقًا- على ظاهرة (النبر اللغوي)، أو إعطاء (النبر) دورَ المنظِّم الإيقاعي الرئيسي، أو حتى إعطائه دورًا ما في تمييز الأوزان.

فقد رأى (د.محمد مندور) أن الارتكازَ (النبر) عنصرٌ أساسيٌّ في الشعر العربي، ومن تردُّده يتولّد الإيقاع، وهو «يقعُ على كلِّ تفعيل، ويعودُ في نفس الموضع على التفعيل التالي»! وأنه لا يقع إلاّ على مقطعٍ طويل، يُشكّل المقطعَ الثاني للوتد المجموع (//ه)، فالوتد هو النواة الموسيقية التي تحمل الارتكاز، ولا ينكسر الوزن إلاّ إذا أدّى الزحاف إلى فقدان النواة التي تحمله.

ونقول: ليس (النبرُ) ظاهرةً مطّردةً في الشعر العربي -بل ولا في النثر العربي- وليس له فاعلية إيقاعية بحيث يمكن الاعتماد عليها في تكوينِ نظامٍ إيقاعي.

بل ليس للنبر في اللغة العربية فاعليةٌ معنوية واضحة، إذْ لا تتأثّر معاني الكلمات العربية بتغيّر أماكن (النبر) عليها.

وكثيرًا ما تختلف مواقع النبر في نفس الكلمات تبعًا للّهجات العربية المتعددة، أو المناطق المختلفة، دون أن يؤثر ذلك على قراءة أهلها للشعر موزونًا ومفهومًا. ولا نرى للنبر في العربية أكثر من وظيفة تعبيرية، كالتأكيد على معنى أو التنبيه إليه.

يقول د.شكري عيّاد: «النبر في اللغة العربية ليس صفةً جوهريّةً في بنية الكلمة، وإن يكن ظاهرة مطّردةً يمكن ملاحظتها وضبْطها. وإذا صحّ ذلك، فإنّ القولَ بأن الشعرَ العربي شعرٌ ارتكازيٌّ [نبري] كالشعر الإنكليزي أو الألماني قولٌ ليس له -حتى الآن- ما يسنده من نتائج البحث اللغوي. ولعلّ وصفَ جمهور المستشرقين للشعر العربي بأنه شعرٌ كمّيٌّ أن يكون أدنى إلى الصواب».

وفي دراسةٍ عمليّةٍ استقرائية؛ تبيّن (للدكتور علي يونس) أن (النبرَ) في الشعر العربي -كما في

النثر- لا يُشكّل أيَّ نظامٍ إيقاعيٍّ. فتوزيعُ النبر غيرُ منتظم ولا ثابت. كما لم تكن الأوتادُ مواضعَ للنبر في كلِّ الحالات، ولا في أكثر الحالات.

وفي الدراسة التي قام بها عن (الكم والنبر) في الشعر العربي، حاول (د.كمال أبو ديب) تأسيسَ نظامٍ عروضيٍّ يعتمد بصورةٍ رئيسيةٍ على النبر.

إلاّ أن اعتماده شبه المطلق على ملاحظة النبر الواقع على الوحدات الإيقاعية (التفاعيل)، لا على الواقع الشعري، جعلَ دراسته نظريّةً بحتةً، وتفتقر إلى التطبيق العملي.

فالانتظام النموذجي للبحر الكامل عنده مثلًا هو:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

o// o/// o// o/// o// o///

^..x...^..x...^..x...

حيث تشير العلامة (x) إلى موقع النبر القوي، والعلامة (^) إلى موقع النبر الضعيف.

إلاّ أن البحر الكامل لا يرِد دائمًا بصيغته (السيمترية) تلك.

فمن المعلوم أن وزن البحر الكامل يتحقّقُ عمليًّا بمئات الأشكال من الكلمات اللغوية، حيث يمكن للنبر أن يقع على أماكن أخرى مختلفة جذريًّا عن الأماكن التي حدّدها.

خذ مثلًا قولَ ناجي:

وقفَ الشبابُ فداءَ محرابِ الحمى

o// o/ o/ o// o/// o// o///.

^....^.....^....^....^.

وتجمّعَ الأشبالُ بينَ يدَيْكِ

o/ o/// o// o/ o/ o// o///

^....^..^.....^.....

فتلفّتي تجِدي عرينَكِ عامِرًا

o// o/// o// o/// o//o///

^...^........^..^....

وتسمّعي كَمْ قائلٍ لبَّيْك

o/o/o/ o//o/ o/ o// o///

^.....^........^.....

<ملاحظة: لم أستطع هنا ضبط أماكن المؤشر كما هي في المصدر>

ويشير السهم (^) إلى مكان النبر كما تحقّق عمليًّا في قراءةٍ للشاعر (فاروق شوشة) في برنامج لغتنا الجميلة.

حيث يتضح تمامًا اختلاف مواقع النبر بين شطر وآخر، وعدم تطابق أيٍّ منها مع نموذج أبي ديب النظري.

يُضاف إلى ذلك إمكانية قراءة هذه الأبيات بنَبْرٍ يقع على مواضعَ أخرى دون أن يؤثّر ذلك على الوزن أو المعنى.

(٣-٣) المدلولات الصوتية للحروف:

وإن من الباحثين المعاصرين، مَنْ نعى على الخليل -والعروضيين من بعده- «**نظرتهم الشكلية إلى الحرف العربي**»، «**دون الانتباه إلى نوعية كلِّ متحركٍ وساكن**»! فلم يفرّقوا -في الرمز- بين المدلولات الصوتية المختلفة للمقاطع مثل (**با ، بو ، برْ ، شَشْ .. إلخ**)، ولا بين الأنغام المختلفة للحركات، ولا بين الشحنات الصوتية -وما يتبع ذلكَ من فروقٍ في الشحنات الوجدانية المعنوية- للحروف المختلفة!!. معتبرًا ذلك «ثغرةً عروضية» و«شرخًا كبيرًا بين الواقع الإيقاعي والافتراضي العروضيّ. (ينظر: د.محمد توفيق أبو علي، علم العروض ومحاولات التجديد).

ومع صحّة الكلام عن الفروق بين المدلولات الصوتية للمقاطع والحروف والحركات، إلا أنّ في ذلك (مغالطة كبيرة) و(ثغرةً) كان على الباحث أن لا يقع فيها.

فعلم العروض -كما هو معروف- هو علم موسيقى الشعر. ولدراسة الموسيقى، والوصول إلى مكوناتها الإيقاعية الظاهرة، أي (الموسيقى الخارجية)، لابدّ من التجريد الرياضي لواقع الحروف والكلمات.. بل لا يمكن الوصول إلى هذه المكونات بدون ذلك التجريد. وذلك ما فعَلَه علماء الموسيقى، وهو ما فعَلَه الخليل في موسيقى الشعر.

وأما مكونات الإيقاع الشعري (الداخلية)، كنغم الحرف وجرسه، والشحنة، والمدلول الصوتي لكل حرف، فإبرازُها يقع على عاتق الشاعر المبدع، والناقد الفذ، ولدراستِها مكانٌ آخر غير علم العروض، إنه لدى فقهاء اللغة، والخليلُ أحدهم.

ولنتصور معًا حالَ العروض إذا ما أضفنا إلى مصطلحاته ما يُفيد التفريقَ بين كلّ حرفٍ وآخر في نغمته، وشحنته، ومدلوله الصوتي.





اللغة والمصطلح: الواقع والمأمول

هيا الشافعي

شكّلت اللغةُ الوظيفةَ الأسمى للتواصل البشري بل التواصل الكلّي؛ فاللغات ليست مقتصرة على جانبها المنطوق -العربية مثلًا-، بل شملت ميادين أوسع من ذلك إلى لغة الإشارة ولغة الجسد ولغة العين، فأصبح مصطلح اللغة مصطلحًا واسعًا يدخل في العديد من المفاهيم والحدود، ويختلف باختلاف زوايا النظر إليه.

وأما قديمًا فنجد أجمعَ تعريفٍ وأمنعَ للغة في قول ابن جني: «فإنها أصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[1]. وعليه نجده نظر إلى اللغة المنطوقة بوجه الخصوص؛ كونه جعلها أصواتًا، وفي لسان العرب ورد تعريف الجذر (لغو) فيه: أنه ما كان من الكلام غير معقود عليه، وأيضًا هو الشيء الذي لا يعتد به، وقال اللغة من الأسماء المنقوصة وأصلها لغو من لغا إذا تكلم، وقيل اللغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه، وجِماعه الخطأ، وقيل العدل عن الصواب، وهو الباطل، واللغو النطق. واللغة: اللِّسن وحدها إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[2].

وبهذا نجد أن اللغة في غالب معناها اللغوي تأخذ منحى سلبي، إذ تدل على الميلان والبطلان والتكذيب والّا فائدة، وتجدر الإشارة إلى أن مادة «لُغة» لم ترد في القرآن الكريم ولا مرة، وإنما الذي ورد مادة «لَغو» وحدها، «وواضح من هذا

---

(١) ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة- مصر، ٢٠٠٦م، ١: ٣٣.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل محمد (٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ، ١٥: ٢٥٠-٢٥٢، مادة (ل غ و).

أن المادة استعملت في القرآن الكريم بما يوافق معناها العام الأصلي... ولم يستعمل القرآن لفظة «اللغة» ولا مادتها «ل غ و» بمعناها الاصطلاحي للدلالة على الكلام الذي يتفاهم به جيل من الناس»[١].

وأما اصطلاحًا وهو مضمار حديثنا في اللغة والاصطلاح، فنجد الخولي قد جمع وقسّم التعريفات بشكل مختصر وموجز وشامل مع شرحه بعد ذلك، إذ يقول: «يمكن تقديم تعريفات عديدة للغة:

- اللغة نظام اتصال بين طرفين.
- اللغة نظام لتبادل المشاعر والأفكار بين الناس.
- اللغة وسيلة للتعبير عن الحاجات والآراء والحقائق بين الناس.
- اللغة نظام اعتباطي لرموز صوتية تستخدم لتبادل الأفكار والمشاعر بين أعضاء جماعة لغوية متجانسة»[٢].

وبذا نجد التعريفات السابقة قد جمعت أغلب الآراء حول تعريف مصطلح اللغة، الذي تمحور حول وظيفة اللغة في الاتصال والتواصل سواءً لأفكار أو مشاعر، وكذلك سواء كان بين البشر أو الكائنات الحية الأخرى، بيد أن الخولي لفت إلى معنيين آخرين للغة اصطلاحًا على أنهما: اللهجة والحرف، أسوة بالقدماء الذين أفردوا أبوابًا في اختلاف اللغات أي اختلاف اللهجات، وكذلك بتفسيرهم للحديث الشريف أنَّ القرآن قرأ بحروف سبعة[٣].

ولما كانت وظيفة اللغة الأساسية الاتصال، والتعبير والإفهام، توجب علينا «دراسة دلالة الألفاظ، أو معاني المفردات، والعلاقة بين هذه الدلالات والمعاني المختلفة، والحقيقي منها والمجازي، والتطور الدلالي وعوامله ونتائجه، ونشوء الترادف والاشتراك والأضداد»[٤]. ومنه نخلص إلى أن دراسة دلالة الألفاظ أدّى إلى تجمُّع ألفاظ معيَّنة في موضوع معيَّن، ومع تطور العلوم المختلفة وصياغة مفاهيم مختلفة لكل علم منها، تشكَّل ما يعرف لدينا بالمصطلح.

فالمصطلح لغةً نجد مادته «ص ل ح» في لسان العرب: الصلاح: ضد الفساد، صلح يصلح ويصلح صلاحًا وصلوحًا، والجمع صلحاء وصلوح، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح في أعماله وأموره، وأصلح الشئ بعد فساده: أقامه، والصلح: السلم[٥]. ولم يرفد

(١) قنيبي، حامد صادق، المعاجم والمصطلحات، ط١، الدار السعودية، الظهران – السعودية، ٢٠٠٠م، ٣٧.

(٢) الخولي، محمد علي، مدخل إلى علم اللغة، ط١، دار الفلاح، الأردن – صويلح، ٢٠٠٠م، ١٢.

(٣) المرجع السابق، ٣٩-٤٢.

(٤) عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة، ط٣، ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ١٠.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ٢: ٦١٥-٧١٥، مادة (ص ل ح).

-ابن منظور- معجمه بالمصطلح اشتقاقًا للصلح، فـ«الملاحظ أننا نجد ترادفًا في استخدام صيغتي «اصطلاح» و «مصطلح» في المعجم اللغوي أو معاجم المصطلحات»[١]. الأمر الذي يجعلنا نرجّح بوضوح الفوضى المصطلحيَّة بين الاصطلاح والمصطلح، ومن المعاجم الحديثة من تنبَّه إلى هذا الأمر فسارع إلى رسم الحدود بينهما وهو معجم مجمع اللغة العربية في القاهرة، فقد عرّف الاصلاح بقوله: هو «اتفاق طائفة على شيء مخصوص»[٢]، وأما في تعريفه للمصطلح فنجده قد أبان بقوله: أنه «لفظ أو رمز يتفق عليه في العلوم والفنون للدلالة على أداء معنى معين»[٣].

وفي الاصطلاح نجد إشارات لمعنى المصطلح اصطلاحًا عند الجاحظ في بيانه حيث يقول: «وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفًا لكل خلف، وقدوة لكل تابع»[٤]. ويمكننا القول بأن القرن الرابع الهجري وقبله بقليل شهد تحولات كبيرة وتطورات نوعية في مجال التأليف والعلوم سواء العربية أو العلوم الدنيوية من طب وهندسة وفلك وحساب، وهذا مما يحتاج بالضرورة إلى وضع مصطلحات ذات بال لهذه العلوم، إلّا أنَّ المصطلح لم يكن مستقرًا بشكل كامل، فنجد اختلافًا في الاصطلاح بين مدرستي البصرة والكوفة على سبيل المثال إذا ما أنتحينا نحوَ النحوِ، وفي ذاك العصر تم تأليف مصنفات تُعْنَى بالمصطلحات ونجد هذا عند الخوارزمي في مصنَّفه «مفاتيح العلوم» الذي جمع حوالي ألفين وأربعمئة مصطلح، معتمدًا في جمعه على مجهوده وفي تفسيرها على ثقافته الواسعة[٥].

وأما التعاريف التي وضعها المحدثون من مثل عبد الصبور شاهين، وزعم بأنه السبّاق إلى هذا التعريف، في قوله: «المصطلح هو اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني، أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة»[٦]. وكان لعلي القاسمي بصمته الواضحة في هذا الشأن بأنْ عرّف علم المصطلح بقوله: أنه «علم حديث يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ اللغوية التي تعبّر عنها، وهو علم مشترك بين علوم عدة أبرزها علم اللغة،

(١) قنيبي، المعاجم والمصطلحات، ٥٦.

(٢) مجمع اللغة العربية، معجم الوجيز، د.ط، دار التحرير، القاهرة – مصر، ١٩٨٩م، ٣٦٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)، البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ١٩٩٨م، ١: ١٣٩.

(٥) جفال، محمود عبد الله، المصطلح اللغوي عند ابن جني، أبحاث مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن – عمان، ٢٠٠٦م، عدد٧١، ٦٦.

(٦) قنيبي، المعاجم والمصطلحات، ٥٨.

والمنطق، والمعلومات، وعلم الوجود، وعلم المعرفة، وحقول التخصص العلمي»[١]. حيث أشار إلى أن البحوث في علم المصطلح قد نشطت في كندا وفرنسا والاتحاد السوفيتي، وأما في الوطن العربي فتوجَّهت المجامع اللغوية والعلمية، إلى العناية بالمصطلح العلمي والتقني والتعريب والنشر في المجلات التي تصدر عنها[٢].

وفي المجمل نجد عَزْو أصحاب العلم مسؤولية وضع المصطلحات وتوحيدها ونشرها إلى كلٍ من[٣]:

- **المجامع اللغوية:** مجمع اللغة العربية، المجمع العلمي بدمشق، ومكتب تنسيق التعريب في الرباط.
- **المعاجم الموحدة للمصطلحات:** المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، والمعجم الموحد لمصطلحات الكيمياء.
- **البنوك الآلية للمصطلحات:** بنك معربي بمعهد الدراسات والأبحاث في الرباط، والبنك الآلي السعودي للمصطلحات.
- **وسائل الإعلام:** إذ هي الجسر الواصل بين المصطلِحين وبين العامة.

(١) القاسمي، علي، علم اللغة وصناعة المعجم، ط١، مطبعة جامعة الملك سعود، الرياض - السعودية، ١٩٧٥م، ل.

(٢) القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، ن.

(٣) حفار، عز الدين، واقع المصطلح العلمي اللغوي العربي، أبحاث جامعة مستغانم، الجزائر، ١.

وأما عن النظرية العامة لعلم المصطلح التي تقوم على المبادئ التي تحكم وضع المصطلحات طبقًا للعلاقات القائمة بين المفاهيم العلمية، وهي: (طبيعة المفاهيم، وتكوين المفاهيم وخصائصها والعلاقة بينهما، وطبيعة العلاقة بين المفهوم والشيء المخصوص، وتعريفات المفهوم، وكيفية تخصيص المصطلح للمفهوم والعكس بالعكس، وطبيعة المصطلحات ووضعها)، ولكنَّ الافتقار إلى تخصيص نظرية عامة لعلم المصطلح مازال مستمرًا، إذ إنَّ الجهود المبذولة في ميدان التطبيق على علم المصطلح وليس التأصيل لمنهجيَّة واضحة جامعة مانعة تحكمه، فلا ننسى أنَّ نمو علم ما رهين بتقدم البحث في ذلك العلم، فإن اللغة العلمية لا تحيا إلا بتمكن العلم نفسه أي المصطلح في نفوس المحدثين المكتسبين لهذا العلم[٤]، فلغة العلم هي اللغة التي تحمل المصطلح.

وفي تدارك ذلك نجد العلماء قد أسسوا على الأقل طريقة ممنهجة لوضع المصطلح، وأول من أسهم في هذا العمل هو أحمد عيسى في تهذيبه، حيث بيّنها وأتى على تفنيدها وتفصيلها، وهي على الترتيب فالأَوْلى أُولى ثم يتبعه التابع في الولاية: الترجمة، فالاشتقاق، فالمجاز، فالنحت، فالتعريب، ولا يكون الانتقال من رتبة إلى أخرى إلا بعد العجز التام عن الإتيان بالأَوْلى[٥].

(٤) قنيبي، المعاجم والمصطلحات، ٥٩-٨٩.

(٥) عيسى، أحمد بك، التهذيب في أصول التعريب، ط١، مطبعة مصر

ولا ننفي تعلق العالم العربي وحركته العلمية بمشكلة المصطلح، فهل اللغة العربية عاجزة وقاصرة عن الإتيان بالمفردات والتراكيب التي ترسي دعائم العلم إلى موانيها الصحيحة؟ ولِمَ لم تحدث أزمة المصطلح في العلوم الغربية؟ وكيف للغة العربية القديمة أن تكون لغة العلم والمعرفة؛ ففي القرون الأولى للدولة الإسلامية كان العلماء يؤلفون مصنفاتهم باللغة العربية مهما كان محتواها طبًّا أو فلكًا أو حسابًا أو علوم لغة، وهذا يفند قول من قال بأنَّ اللغة العربية قاصرة عن الإتيان بالمفردات المناسبة للعلوم الحديثة، فليست العربية القاصرة، إنما بنو العرب وأبناؤها العاقون هم القاصرون في هذه المهمة، ولابد من نهضة قادمة تعيد العربية إلى مدرجها.

فمن أكثر المشاكل إحاطة في العلوم والمصطلحات بشكل عام هي أنَّ قارئ كتب اللسانيات مثلًا المترجمة منها أو الموضوعة بالعربية «**تتخطّفه أمواج الفوضى المصطلحية ما بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، وهو ما يحول دون فهم هذا العلم فهما دقيقًا صائبًا**»[(١)]. كما لاختلاف الأصول التي تكوّن المصطلح الغربي ما بين اللاتيني والإنجليزي والألماني أثر في صعوبة استقرار المصطلح العربي مترجمًا أو وَضْعٌ جديد في اللغة، بالإضافة إلى غزارة المصطلحات المشِّكلة لعلم من العلوم ونستمر باللسانيات مثالًا؛ حيث أرادت كل مدرسة لسانية إثبات أصالتها بوضع مصطلحات خاصة بها، فوقع العرب أمام سيل جارف من المصطلحات بين القديمة والحديثة والحالية، بالإضافة إلى اختلاف المفهوم الواحد بين رواد هذا العلم العائد إلى حداثة هذه العلوم وعدم تأصيلها وتمركزها في أذهانهم[(٢)]. وعليه إن معرفة المشكلة نصف حلها، فنأمل أن يوفقنا الله ويهدينا من أمرنا رشدًا بأن نكون بارّين لهذه اللغة ونسعى لنهضتها، وتأصيل مصطلحاتها بشكل يوحّد بين مشارق الأرض ومغاربها.



الأولى، القاهرة – مصر، ١٩٢٣م، ١١٢.

(١) السراقبي، وليد بن محمد، فوضى المصطلح اللساني، أبحاث مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٨م، مجلد٨٣، ٢: ٣٧٧.

(٢) وكّان، عمر، اللغة العربية وإشكالية المصطلح اللساني، أبحاث كلية اللغة العربية، ١٩٩٥م، ١٠٣-١٠٥.





اختلاف رأي النحوي في المسألة

عبد الخالق حسن

من المشهور أنَّ العالمَ يختلفُ مع غيرِه مِنْ العلماءِ، وأمَّا اختلافُهُ مع نفسه فهذا رُبَّما يبدو غريبًا في أوَّل وهلة، ولهذا كان جديرًا بالعنايةِ والتَّأملِ والمناقشةِ، إذْ لا بُدَّ أنْ تكونَ هناك أسبابٌ ودواعٍ جعلَتْهُ ينتقلُ من رأيٍ إلى آخر، فينفي ما أثبتَ، ويثبتُ ما نفى، وهذه الظاهرة لمْ تكُن بدعًا في الدرسِ النحويِّ دون غيره من العلوم الأخرى، فإذا ما أمعنا النظرَ في الفقهِ الإسلامي فسنكتشفُ أنَّ هذه الظاهرة ظهرَتْ عندَ الفقهاءِ الأوائلِ من الصحابةِ رضي الله عنهم، ففي مسألة عدِّ طلاقِ الثلاثِ واحدة كان عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفتي بذلك لسنتين من خلافتِهِ، ثُمَّ لما رأى الناسَ استهانوا بذلك غيَّرَ رأيَهُ، فعن ابن عباس قال: «كان الطلاقُ على عهدِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وعلى آله وسلم، وأبي بكرٍ، وسنتين من خلافةِ عمرَ طلاقُ الثلاثِ واحدة، فقال عمر: إنَّ الناسَ قد استعجلوا في أمرٍ كانتْ لهم فيه أَناةٌ فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم» [1].

وهكذا الإمامُ الشافعيُّ إمامُ الفقهِ في عصرِهِ كان له قولان: قولٌ قديمٌ وهو الذي صنَّفَهُ ببغدادَ وآخر جديد وهو الذي صنَّفَهُ بمصر[2]. ومن عجيبِ ما ذكرَهُ الإمامُ الصنعانيُّ في مسألةِ وقوعِ الطَّلاقِ البدعيِّ قوله: كُنَّا نفتي بعدمِ

---

(١) صحيح مسلم: ١٠٩٩/٢، برقم (١٤٧٢) باب طلاق الثلاث.

(٢) ينظر الشافعي حياته وعصرُه-آراؤه وفقهه، محمد أبو زهره: ١٥٨، وتعدد رأي النحوي في المسألة الواحدة: ٨، واختلاف آراء ابن مالك النحوية من خلال شرح الأشموني للألفية، حوفان بن صالح بن عبد الله: ٢٦.

الوقوعِ وكتبْنا فيه رسالةً، وتوقفْنا مدَّةً ثُمَّ رأينا وقوعَهُ، ثُمَّ إنَّهُ قوي عندي ما كنتُ أفتي به أولًا من عدم الوقوع لأدلَّةٍ قويَّةٍ سقتُها في رسالة سمَّيتُها (الدليلُ الشرعيُّ في عدمِ وقوعِ الطَّلاقِ البدعيِّ)[١]. فالعالمُ قد يعرضُ له ما يصرفُهُ عن قولِهِ الأوَّل إلى قولٍ آخر مناقض له لما يرى من أدلَّةٍ نقليَّةٍ أو عقليَّةٍ تستجد عنده.

وأمَّا بروز هذه الظاهرة عند علماء النحو فقد أشار إليها علماء أجلاء، منهم ابن جني في خصائصِهِ في البابِ الذي عنونَ لهُ «باب اللفظين على المعنى الواحد يردان عن العالم متضادين»[٢]. ومن الذين ذكرهم ابن جني ممن اتصفوا بهذه الصفة[٣]:

١- سيبويه.

٢- الأخفش: قال عنه ابنُ جني: وكان ركَّابًا لهذا الثَّبج آخذًا به غير محتشمٍ منه....

٣- المبرد.

٤- أبو علي الفارسي.

ونقل غيرُ ابن جني اختلافًا في الأقوال عن علماء متقدمين بصريين وكوفيين[٤]، بل قد كُتِبَتْ في ذلك رسائلُ وأطاريحُ[٥].

وقد برزتْ هذه الظاهرةُ عند ابن مالك، فإنَّ المتتبعَ لمصنفاتِهِ يجدُ بعضَ آرائهِ قد تعددتْ واختلفَتْ وتباينتْ في عدَّةِ مسائل نحويَّة، وفي المصطلحات وتراجم الأبواب وترتيبها، وقد لفتَتْ هذه الظاهرةُ نظرَ بعض العلماء الذين شرحوا كتبَهُ فنبهوا عليها ومنهم: أبو حيَّان الاندلسيُّ[٦]، والشاطبيُّ[٧] الذي كان فارسَ بيانِ هذه الظاهرة عند ابن مالك، ومنهم السيوطيُّ[٨].

والذي ينبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ هذه الاختلافاتِ عند مَن ذُكِرَتْ أسماءُهم على وجهِ العموم، وعند ابن مالك على وجه الخصوص لا ينبغي أن ينظرَ إليها على أنَّها اضطرابٌ، أو ضعفٌ بل هي أمارةٌ على تطوُّرِ فكرِ العالم، ودليلٌ من أقوى الأدلَّةِ على أنَّ هذا العالمَ قد بلغ مرحلة الاجتهاد، فلا يمكنُ أنْ يُتصوَّرَ أنْ يقفَ العالمُ على الحقيقةِ العلميَّةِ دفعةً واحدةً، من أوَّلِ أمره ثُمَّ تبقى جامدةً في

---

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني: ٢٠٢/٣.

(٢) الخصائص: ٢٠٠/١.

(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٠٠/١-٢٠٧، وينظر اختلاف آراء ابن مالك النحوية من خلال شرح الأشموني للألفية: ٢٧.

(٤) منهم أبو حيان في ارتشاف الضرب: ٧٨٢/٢، والتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل: ١١٥/١١.

(٥) منها على سبيل المثال أطروحة: (تعدد رأي النحوي في المسألة الواحدة حتى القرن الثالث الهجري)، مها بنت مسفر الغامدي.

(٦) ينظر التذييل والتكميل: ٢٣٨/٢.

(٧) ينظر المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: ٣٤٩،٣٥٢/١، ٤١٥/٣.

(٨) ينظر الهمع: ٢٢١/١.

فكره، فالمعروف، بل المشهور أنَّ المعرفةَ تنمو وتتطوَّرُ لاسيَّما عند العلماء المحققين، وليس يعيب العالم أنْ يعدلَ إلى قولٍ ثانٍ يراه أصوبَ، وإنْ كان يخالفُ قولَهُ الأوَّل، بل الذي يعيب العالم هو أنْ يعرفَ الحقَّ ويجحدَهُ، مكابرةً، وظلمًا وعلوًا وهي صفة من صفات اليهود-لعنهم الله- الذين وصفهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. إذن فظاهرةُ اختلاف الرأي أو تعدده دليلٌ على نضجِ فكرِ العالم، ودليلٌ على بحثٍ متواصلٍ، وهي منقبة وأيُّة منقبة، يُحمَدُ عليها، وما ذاك إلا لأنَّها تدلُّ على أنَّه كان رجَّاعًا إلى الحقِّ دوَّارًا مع الدليل حيث دار، مخلصًا النية، لا تأخذه العزة بالخطأ فيبقى على خطئه بعد انكشافِ الصَّواب له، ويؤيد ما ذكرناه قولُ الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي: "ولعلَّ ولع ابن مالك بالتماسِ الأدلَّة للمسائل النحويَّة، وحرصِه على ذلك إيمانًا منه بأنَّ الرأيَ الذي لا دليلَ عليه لا يُلتفَتُ إليه وما اتَّصَفَ به من فضيلةِ الرجوعِ إلى الحقِّ، كان داعياً له إلى تعديلِ آرائه أو تغييرها [١].

ونخلص مما سبق إلى أنَّ هذه الظاهرةَ لمْ تكنْ عند النحويين فقط؛ بل سُجِّلتْ عند الفقهاء من الصحابة كعمر رضي الله عنه والتابعين كالشافعيِّ، وسُجِّلَتْ عند النحاة من المتقدمين والمتأخرين فلا يَضُرُّ ابن مالك اختلاف بعض آرائهِ بين سبك المنظوم وتسهيل الفوائد، أو بقيَّةِ كتبِه، وهذا الاختلافُ الذي حصل عند ابن مالك يتوافق وطبيعة الأمور لا سيَّما وأنَّ ابنَ مالك عالمٌ مجتهدٌ أمضى حياتَهُ بين القراءةِ والدراسةِ والتأليفِ، والذي يظهرُ أنَّ أغلبَ الآراء التي عدل إليها في تسهيل الفوائد كانتْ أصوبَ وأجودَ لبعدها في الغالب عن التكلُّفِ والتأويل وميلها إلى التيسير والتسهيل على ما سنبيِّنُهُ في هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

أسبابُ اختلافِ رأيِ النحويِّ في المسألة:

إنَّ اختلافَ آراء ابن مالك وغيره من أهل اللغة؛ بل العلماء عامَّةً لمْ يكنْ غفلةً أو سهوًا، بل كان عن قصدٍ وعمدٍ ونحن نذكرُ أسبابَ هذا الاختلاف في الرأي ونجملُها في أربعة أسباب:

الأوَّل: التَّطوُّرُ الفكريُّ والنضوجُ العلميُّ القائم على إعادةِ النظر فيما استُجدَ من أدلَّة مع مرور الزمن ومِنْ ثَمَّ يكون ما كتبَهُ في شبابِهِ، أو في أوائل حياته التأليفيَّة قد لا يرتضيه في آخر حياته بعد أن يستوي على سوقه، وهذا واقعٌ مجرَّبٌ، فقد قال ابن جني: «ومن الشائع في الرجوع عنه من المذاهب ما كان أبو العباس تتبَّعَ به كتابَ سيبويه، وسمَّاه مسائلَ الغلط فحدثني أبو علي عن أبي بكر أنَّ أبا العباس كان يعتذرُ منه ويقول: هذا شيء كُنَّا رأيناه في

(١) تعارض الآراء في نحو ابن مالك: ١٨١.

أيام الحداثة فأمَّا الآن فلا»[١].

الثاني: التراجُع عن الخطأ ولا يُعَدُّ هذا غلطًا ولا عيبًا؛ بل هو التواضع بعينه، قال أبو الحسن الأخفش: «سمعتُ أبا العباس المبرد يقول: إنَّ الذي يغلط ثُمَّ يرجع لا يُعدُّ ذلك خطأ؛ لأنَّهُ قد خرج منه برجوعه عنه، وإنَّما الخطأُ البيِّنُ الذي يصُّر على خطئه، ولا يرجعُ عنه فذلك يُعدُّ كذَّابًا ملعونًا»[٢].

الثالث: اطِّلاعُ العالم على دليلٍ لم يطَّلْع عليه من قبل، ولم يصلْهُ في بداية حياته، فقد نقل السيوطيُّ عن ابن السراج قوله: أنا أفتي بفعلية (ليس) تقليدًا منذ زمن طويلٍ ثُمَّ ظهر لي حرفيتها[٣].

الرابع: الجوابُ المباشر الميداني السريع. فقد ذُكِرَ أنَّ أبا علي الفارسي اجتمع مع عضد الدولة البويهي في الميدان، فسأله عضدُ الدولة بماذا ينتصب المستثنى في نحو: قام القومُ إلا زيدًا؟ فقال أبو علي الفارسي: «بتقدير (استثني زيدًا). فقال عضدُ الدولة له -وكان فاضلًا-: لم قدَّرتَ استثني، فنصبتَ؟ هلَّا قدَّرْتَ: امتنع زيدٌ، فرفعتَ؟ فقال أبو علي: هذا الجواب الذي ذكرتُهُ لك جواب ميداني، وإذا رجعتُ ذكرت لك الجواب الصحيح»[٤].

وقد تكون أسبابٌ أخرى مجتمعةً أو متفرقةً تبيِّنُ لنا شيئًا مما وقع فيه ابن مالك وغيره من العلماء مما لم أقْف عليها، وإنَّما عرَّجتُ بهذه الإضاءة على هذه الظاهرةِ لتقريبِ الصورةِ وتوضيحِ هذه الظاهرة وتفسيرها وذكر بعض أسبابها، وإلا فإنَّ لكلِّ داءٍ دواءٌ، وليس كلُّ داءٍ يعرفُ الطبيبُ دواءَهُ.



(١) الخصائص: ٢٠٧/١، وينظر تعدد رأي النحوي في المسالة الواحدة حتى القرن الثالث الهجري: ٩.

(٢) أبو العباس المبرد وأثره في علوم العربية، محمد عبد الخالق عضيمة: ٢٥، وينظر تعدد رأي النحوي في المسألة الواحدة حتى القرن الثالث الهجري: ٩.

(٣) الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي: ١٢/٥، وينظر الأصول في النحو، ابن السراج: ٢٧/١، وتعدد رأي النحوي في المسألة الواحدة حتى القرن الثالث الهجري: ١١.

(٤) نزهة الالباء في طبقات الادباء، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري: ٢٣٣، وينظر تعدد رأي النحوي في المسألة الواحدة حتى القرن الثالث الهجري: ١١.



القسم الثاني







المؤلفات النحوية تصنيفًا وتنويعاً

أ.د. محمد ذنون يونس

أقدم ما وصل إلينا من المدونات النحوية **(كتاب سيبويه)** الذي وضع فيه صاحبه أغلب القواعد النحوية، التي استنبطها هو وشيوخه من كلام العرب الفصحاء الذين التقوا بهم وأخذوا منهم اللغة المنطوقة، ثم توالت المؤلفات بعده ظهورًا لتنسج على منواله، وتبني على مسائله، وتوضح مقاصده، وتعلل مباحثه، مع استدراكات وزيادات أوجدتها عمليات التأليف العلمية المتلاحقة والأنظار السديدة المتوالية، وإعادة تنظيم وتبويب، وعناية بالتقنين الاصطلاحي، مما يشكل مكتبة لغوية ضخمة في هذا الحقل المهم قلما وجد في أمة من الأمم.

لكن هذه المؤلفات على كثرتها وتنوعها يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أشكال رئيسة، هي:

١. المؤلفات العلمية: ويقصد بها تلك المؤلفات التي تعرض فيها المسائل النحوية على أنها جملة من العلاقات المترابطة في التراكيب والنصوص الفصيحة؛ وغاية مؤلفها الوقوف على العلاقات بين تلك التراكيب، وإيجاد ما بينها من ترابطات، وآثار التغيير الذي يحدث في التركيب على صحة الجملة قواعديًا، ومن ثم تكون الأبواب النحوية متداخلة، ويسود جو من عدم الانتظام الظاهري في معرفة تناول الموضوع الواحد، وإن كان يسري الانتظام داخليًا من خلال فكرة الارتباط الداخلي بين تلك التراكيب وهي تتشابه أو تختلف نتيجة التغييرات والتبديلات التي تعرض على تلك التراكيب، وهذا النمط من التأليف

يظهر لدى المنظرين والواضعين الأوائل، الذين خبروا العلاقات النحوية الناشئة من ملاحظة الكلام العربي وتنوعاته التركيبية المختلفة، فأرادوا ترجمة تلك العلاقات واستكناه تلك الروابط وتحديد القواعد التي تحكمها وتنظمها، وخير من يمثل هذا الشكل من المؤلفات النحوية المتخصصة (الكتاب) لسيبويه (ت ١٨٠هـ) و(المقتضب) للمبرد (ت ٢٨٦هـ)، والمؤلفات النحوية غير المتخصصة مثل (كتب إعراب القرآن ومعانيه) وهي جد كثيرة، التي تعرض للعلاقات النحوية المختلفة وتحاول أن توجد العلاقات النحوية بين تلك التراكيب وآثارها الدلالية.

٢. **المؤلفات التعليمية:** والمقصود بها تلك المؤلفات التي تبتغي التعليم، وعرض الأحكام النحوية بغية الدرس والتدريس، وهي تتناول العلاقات النحوية بين التراكيب لكن من خلال عرض تعليمي لا تتداخل فيه تلك التراكيب والعلاقات التي تحكمها، ومن الطبيعي أن يكون لهذه المؤلفات منهج علمي تسير عليه في عرض المادة النحوية، وقد اتخذت صورًا متعددة؛ فابن السراج (ت ٣١٦) والزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) اتبعوا معيار (الكلمة) في عرض المادة العلمية، فبدأوا بمباحث الأسماء ثم الأفعال وانتهاءً بالحروف، ومن الطبيعي أن يؤثر هذا التقسيم النظري على شرح العلاقات بين المركبات النحوية، فتنفصل عرى التراكيب ليناقش الفعل بعيدًا عن المفعول، والحرف بعيدًا عن المجرور... إلخ، مما يؤثر على إيجاد الخصائص التركيبية والعلاقات الناشئة عن تلك الارتباطات، لكن هذا ما يقتضيه المنهج التعليمي من عرض المادة العلمية بشكل منظم يناسب عمليات التعلم والتلقي والبناء النحوي لدى الناشئة، ومنهم من سار على مبدأ (الوظيفة والعامل) فعرض المادة النحوية وفق تقسيم (المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والمجزومات) والعوامل الأصلية والعوامل التبعية، والمعمولات الأصلية والتبعية، والفصل بين المعربات والمبنيات؛ كما فعل ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) وابن هشام (ت ٧٦١هـ) وغيرهما في عرض المادة النحوية، ومن ثم تشظت العلاقات بين أبواب مترابطة كالخبر والحال، والفعل واسم الفاعل، والماضي والأمر من جهة والمضارع من جهة أخرى، وأسماء النواسخ وأخبارها، ومنهم من اتبع في عرض المادة النحوية أساس الإعراب والبناء كما فعل ابن هشام في (شرح الشذور)، نخلص من هذا إلى أن المنهج التعليمي وإن كان حريصًا في عرضه المادة النحوية على ميزة اليسر والمنهجية في العرض وتوزيع المادة المتشتتة



في الكتب العلمية تحت باب واحد إلا أنه أدى إلى تشتيت آخر يقع في العلاقات والوشائج التي تربط بين الأبواب والمباحث، التي هي المقصود الأعظم من دراسة المادة النحوية والتعرف على خصائص التفكير النحوي.

٣. **المؤلفات النقدية:** ويقصد بها تلك المدونات التي تؤلف من أجل نقد الكتب النحوية بنوعيها العلمي والتعليمي، بغية الوصول إلى الخطاب النحوي العلمي المتماسك، وترابط المسائل النحوية بعيدًا عن التناقضات والتداخلات، وتحديد المفاهيم الاصطلاحية بشكل عميق يوقف القارئ على حقيقة المدلول الاصطلاحي، والإجابة عن الثغرات التي يمكن إثارتها في التعليل النحوي، أو بيان مقاصد النحويين وحقيقة خطاباتهم، والأمور والأسباب التي دفعتهم إلى عمليات التقدير والتأويل، إلى غير ذلك من المهام التي تضطلع بها هذه المؤلفات النحوية ذات الطبيعة النقدية، وهي لا تنشئ دارسًا نحويًا أو تبتغي التعليم، بل غايتها الأساسية الكشف عن الآراء النحوية والترجيح فيما بينها مع غاية التدقيق والتحقيق فيما تناقشه وتثيره من مباحث ضرورية، وبذلك يتكامل البنا التأليفي للنحويين، علمًا وتعليمًا ونقدًا، وتقف كتب (الحواشي النحوية) في مقدمة تلك المؤلفات النقدية نظرًا لاهتمام أصحابها بنقد الكتب النحوية التي صارت مرجعًا للدارسين والمتعلمين، إذ الغاية العليا من كتابة المحشي تعليقاته بـ(القول) التوقف عند أسرار الخطاب النحوي، وكيفية صوغ العبارة النحوية، والاحترازات التي يمكن أن يفهمها من تلك الصياغات المتنوعة، مع غايات نقدية أخرى يقوم بها المحشي من التوضيح والتتميم والاستدراك والتصويب والتخطئة والتعليل والتقويم والتعميم والتقييد، وكل واحدة من هذه الغايات تأخذ جهدًا كبيرًا من الناقد النحوي تستحق منها الاهتمام والدراسة بغية إنشاء ناقد نحوي حصيف يتمتع بتلك القدرات النحوية العميقة بعد أن استتب الوصف علة أساليب كتاباتنا أو الانحياز إلى الدراسات اللسانية الغربية بعيدًا عن هذا التراث العلمي الضخم، ويمكن سلك كتب (الأمالي النحوية) و(التقريرات) في هذا النوع من التأليف النحوي.





سِيميائِيةُ الإيقاعِ الشِّعريِّ

محمد حمدي الشعار

يُشكّلُ عِلمُ السيمياءِ علامةً فارقةً في تقديرِ النظمِ الشعريِّ خاصّةً؛ ما بعثَ الكثيرين على الاعتناءِ بهِ، وضمّه إلى مُجملِ أدواتِهم النقدية، وهَذا بحثٌ دقيقُ المسلكِ لم يقفْ على إبرازِ محتواهُ للنورِ أحدٌ سبقَني، فقد عمدتُ فيهِ إلى تفسيرِ العلاماتِ الإيقاعيةِ للنصوصِ الشعريةِ للوعي بما ينمازُ بهِ كلُّ نصٍّ عن نظائرِه إيقاعيًا؛ فينعكسُ ذلك بأثرِه على تقييمِه الأدبيِّ، وتفسيرِ بعضِ تراكيبِه وتصويراتِه تعيينًا وجدانيًّا يخترمُ دلالةَ السياقِ الاعتياديةِ من خلالِ الانزياحاتِ الأُسلوبيةِ والبلاغيةِ واللُّغويةِ الدّاخليةِ التي أسهمتْ في تشكيلِ الموسيقى الداخليةِ التي ارتكزت بدورِها على بعضِ العلاماتِ الغامضةِ المُعّبرةِ عّما يعتلجُ في وجدانِ النّاظمِ، والمُفضيةِ إلى الحُكمِ بِفرادةِ النصِّ بانجلاءِ ذاتيّةِ ناظمِه فيهِ وانطباعِ شخصِه في تلافيفِه، أو بتأثُّرِه بما عارضَه أو ناقضَه من نَظمِ غيرِه.

قد تُنتجِ الحركةُ الإيقاعيةُ الدّاخليةُ للنصِّ الشعريِّ صُوَيتًا مُعيَّنًا يُعيدُ تمثُّلاتِ استقبالِ النصِّ عندَ مُتلقِّيه، يُعينُ ذلك الصويتُ على تداوليةِ النصِّ من مُطلقاتٍ سوى التي كانَ عيَّنَها المُتلقّي لاستقبالِه بها قبلًا، بيدَ ما تجبُ الإحاطةُ بهِ هو أنَّ الصُّويتَ الذي نَؤُمُّه هُنا هو الذي كانَ منشؤه المُوسيقَى الدّاخليةَ حالَ الْتحامِها وانسجامِها الموسيقى الخارجيةِ، وغرضِ النظمِ، والمعاني المُّعبرِ عن ذلك الغرضِ بها؛ وبذلك تكونُ سيميائيةُ الإيقاعُ الشّعريِّ -عندنا- في الشّعرِ العربيِّ العموديِّ؛ إذ تلتقي الإيقاعيةُ الداخليةُ والخارجيةُ بما يتلاءَمُ معَ مُناسبةِ قِيلِ النصِّ والمُفرداتِ المُمَثِّلةِ لمعانيه إلّا في القالبِ الشعريِّ العربيِّ العموديِّ.

ومـن تجلّيـاتِ العلامـةِ المرمَّـزة في علاقـة الإيقـاعِ الدّاخلـيِّ للنَّـص بمـا قـد يُوحـي بـه أنْ تُـدرك فكـرةِ النظـم مـن الوَهلـة الأُولى لتلقِّـي النّـصِّ، وتَتعـرَّفَ عـلى التّشـكيلاتِ الرئيسـةِ التـي قامـتْ عليهـا بنيتُـه الدّاخلية؛ فيجتمـعَ لديك بذلك عُنـصرانِ ضروريَّـانِ مـن عنـاصرِ قيـاسِ جماليـة النـصِّ ومائزيتـهِ عـمّا سِـواه.

إلّا أنّ مـا قـد يحـولُ بينَنا وبينَ تفسـيرِ العلامة الإيقاعيـة لأيٍّ مِـن النّصـوصِ الشّـعرية أنْ نقـفَ عنـدَ نَسـخةِ ذلـك النـصِّ مـن غـيرِ محاولـةٍ جـادّةٍ لربـطِ تلـك العلامـاتِ التـي تَناثَـرت في تضاعيفه بأُخـرى في نـصٍّ غـيره تُحـدثُ تلـك العلاقـةُ تزاوجًـا نصّيًّـا بينهـما؛ فيَمتزجـانِ امتزاجًـا جُزئيًّـا وزنًـا وتقفيـةً وموضوعًـا، وتتبلـورُ تلـك العلاقـةُ في طَـورِ تلقِّيهـا الأوّلِ في هيئـةِ مُعارضـةٍ شِـعرية، أو نقيضـةٍ مِـنَ النّقائـضِ، ثـمّ سُرعـانَ مـا تتحلَّـلُ أثنـاءَ دراسـةِ ظواهرِهـا السـيميائية إلى مجموعـةٍ مِـنَ العنـاصرِ، لـكلٍّ منْهـا دلالتُـه الرمزيـةُ على ما اختـصَّ بـه كلُّ شـاعرٍ ممّـن كُنَّـا بصدَدِ تعليـقِ نصٍّ كلٍّ منهـم بِصاحبـه إيقاعيًّـا، فينجـلي لنـا تفسـيرُ أكـثرِ علامـاتِ النّصَّـين أو النصـوصِ المُتعارضـةِ معًـا، وتظهـرُ الرمـوزُ المُعـمَّاةُ لتصـيرَ أكـثرَ لَمَاحيةً في النَّـص.

ومـن تُظهـراتِ الصُّـورةِ الجماليـةِ في النّـصِّ الشّـعريِّ محـضرُ الرؤيـةِ المُتعالقـة نصيًّـا مـعَ نصٍّ سـابقٍ في هيئتِهـا الإيقاعيـةِ؛ مـا يعكسُ العلامـةَ المُشـتركةَ ظاهريًـا بينَ النصِّ المُتلقّـى والنّصِّ الذي انبسـقتْ عنـهُ الرؤيـةُ الدلاليـةُ الأُولى مـن غـيرِ مـا اختـمارٍ بـينَ غـرَضَي النّصّيْـن، وتلـك السـمةُ مخصوصـةٌ بمفهـوم تعالُـق العلامـاتِ المَخبـوءة تحـتَ المعـاني الظاهـرة، والمُنطوية تحـتَ التّراكيب اللغويـةِ الاعتيادية بإرجاعِ اسـتشراف دلالة العلامة وجماليتهـا إلى التصويـرِ المُوسـيقيِّ الدّاخليِّ للنصِّ الشّـعريِّ المُتداخِـل مـعَ العلامـةِ اللغويـة.

وقـد تجلّـت تلـك السـمةُ أيّمـا تجـلٍّ في قـولِ أمـيرِ الشّـعراءِ أحمد شـوقي:

يا نائحَ الطّلحِ أشباهٌ عوادينَا

نَشجى لواديكَ أمْ نَأسى لوادِينا

مِـن مُعارضتِـه لقصيـدةِ ابـنِ زيـدونَ التـي مطلعُهـا:

أَضحى التنائي بديلًا من تدانينا

ونابَ عن طِيبِ لُقيانا تَجافينَا

والمُلاحَـظ في منظومـةِ شـوقي أنّهـا لم تتعالَـقَ علاماتيًّـا مَـع منظومـةِ ابـنِ زيـدونَ إلّا مـن حيـثُ تعانقـت المنظومتـانِ إيقاعًـا خارجيًّـا، وتقفيةً؛ بينما انمحـى كلُّ أثـرٍ لذلـك التعالُـقِ بـينَ النّصّيْـن في الغـرضِ، والتّصويـر، غـيرَ أنّ تسـاوُق الألفاظ إلى معانيهـا قـادَ المُتلقّيـنَ إلى الخَلـط بـينَ كليهـما؛ فأعجـزَ بعضَهـم عن اسـتشرافِ نقـاطِ التّحوّلِ في البنيـةِ الدلاليـةِ لـكلٍّ مـن النّصّـين خصوصًـا وأنَّ النّصّـيْنِ يلتقيـانِ التقـاءً جُزئيًّـا في بعـضِ غـرضِ

النّظـم؛ بمـا يحملانه معًا منَ الشّعورِ بالحنينِ، معَ افتراقهـما فيـما يحـنّ إليهِ كلٌّ منهـما، فقد انطوتْ عتبـةُ (شـوقي) الأُولى لنصّـه: «يـا نائحَ الطّلـحِ...» على ما يبعثُ على الشعورِ بحنينِه إلى شيءٍ ما، إلى أن يبلـغَ قولَـه : «نشـجى لواديك أم نـأسى لوادينا» فتبـدأ تتفتّـحُ آفـاقُ الرؤيـةِ النّقديـةِ للمُتلقّـي نحـوَ تأويـل معلوم لحقيقةِ ذلـك الحنينِ بأنّهُ إلى الأرضِ الّتـي ذُكـرَت ضِمنًـا في كلمـةِ (وادي) مُضافـةً إلى لاحقتِهـا (نَـا) إيذانًـا بالخصوبـةِ، والنّمـاءِ، وقرارةِ النّفسِ بالتواجـدِ فيـهِ، وحـرارةِ الشّـوقِ لتركـه من مُنطلقـاتِ الشـعورِ باحتوائـه إيّـاهُ، وإشـعارًا بمدى مـا يُعانيـه الشـاعرُ مـنَ الالتيـاعِ لمُفارقتـه؛ وتلـك سـمةٌ غلبـتْ علـى شِـعرِ الكثيريـنَ مـن أبنـاءِ تلـك الحقبـةِ علـى جهـةِ التناصِّ، وقـد وافقـه على ذلك المعنـى (أحمـد مخيمـر) في قولِه:

في ظلِّ النخلِ على الوادي

أصغيتُ لقصّةِ أجدادي

بينـما انبـتَّ حبـلُ التفكيرِ في المعنـى المُحصِّـلِ لدلالـةِ اللفـظِ السـيميائيةِ في نـصِّ ابـنِ زيـدونَ مـن مبتدئـه؛ لحيثُ كانَ خطابُه الشـعريُّ لا يحتملُ التـأوُّلَ علـى معنًـى سـوى الّـذي سـاقَ نصّـهُ لـه؛ فالحنيـنُ فيـهِ وإنْ كانَ ضمنيًـا، ولكنَّـه معلـومُ الوجهـةِ بـلا حاجـةٍ إلى إطالـةِ نظـرٍ، فكأنّـه يأخـذُ بيـدِ المُتلقّـي لِـيَردَ ماءَه بنفسـه، كونَ الخطـابِ منَ الوضـوحِ بمنزلـةِ الشـمسِ في رابعـةِ النّهـارِ؛ فليسَ لقولِه :

«أضحـى التنـائي...» و«ونـابَ عـن طِيـبِ لُقيانـا...» معنًـى يتوجّـهُ إليهِ سـوى ذلـك الذي قد يفهمُـه النـاقـدُ كفهـمِ العامـيِّ لـهُ.

إلّا أنّ أثـرَ انعتـاقِ كلا النّصينِ في جُملتِهما من ربقـةِ الآخَـرِ يحتـاجُ إلى تدقيقٍ وتحليـلٍ لِنَصلَ بهما إلى ملابسـاتِ النظـمِ، ومحايثـاتِ الدلالـةِ علـى الحنـينِ، ومـدى مـا حقّقـه كلٌّ منهـما مـن غايـاتٍ تُرشـدُ المتلقّـي إلى ما أنْ كانَا بلغـا الغايةَ في تعيينِ مـا اسـتهدفُه بنـاءُ نـصٍّ كلٍّ منهـما، أو أنّ أحدَهـما انحبـسَ في ذاتيةِ التعبيرِ، فانكفأ نصُّه على نفسِـه؟

وبشيءٍ من التحقيـقِ تلوحُ السـماتُ التي انمازَ بهـا كلٌّ مـنَ النّصيْـنِ فنيًّـا وتركيبيًّا؛ فإنّهـما توافقا في وضـوحِ الدلالـةِ وانميـازِ الغـرضِ العـامِّ، بينـما اسـتعصى التصويـرُ عنـدَ ابـنِ زيـدون -مـع مـا فيـهِ مـن الوضـوحِ اللفظـيِّ- عـن إبـرازِ العلاماتِ الخافيـةِ التـي سـاقَ النـصَّ مـن أجـلِ بيانِهـا؛ فلم يكـن لِيَعـرفَ ناقـدٌ مَـن المَنشـودُ بعباراتـه -علـى سـهولتِها وعذوبتِهـا وجزالتِهـا- مـا لم يكـن عارفًـا بسـيرتِه معَ بنت المُسـتكفي ولّادةَ، وفي ظنّي أنّ ابنَ زيـدونَ تـرك التصريـحَ عامـدًا مخافـةَ مُؤاخذتـه حـالَ التصريـحِ، ولأنّ في الإيحائيـةِ والانحـرافِ بدلالـةِ النـصِّ الشـعريِّ عـن المُتعـارفِ المعلـوم مـا ينـمازُ بـهُ النظـمُ عـن النـثرِ، إلى جانبِ المُوسـيقى الدّاخليـةِ الّتـي حملـتْ علامـةً مُتميّـزةً تـكادُ تغيبُ لـدى التحليـلِ علـى مَـن تخفـى عليـهِ خصائـصُ دلالـةِ العلامـةِ الموسـيقيةِ في إبرازِ مقاصـدِ النظمِ.



نقضُ التَّعبير بـ "كونه" عن التَّعليل

صفاء صابر البياتي

أولًا: تركيبه

ثمَـة تعبيـرٌ لغويٌّ ينصبُّ على استعمال «كون» الـذي هـو مصـدرٌ للفعـل النَّاقص (كان) استعمالًا غريبًا في سـياق جديـد يَلفِتُ النَّظـرَ؛ إذ لا عهـدَ للعربيَّـة الفصيحـة بـه، ذلكم هو اسـتعمال المصدر هـذا مضافًـا منصوبًا، كقولهـم: أُحيلَ السـيد فلان إلى التقاعـد كونـه من مواليـد ١٩٥٩، ونحو: عُوقِبَ الموظَّـف كونـه متاخـرًا عـن الـدوام. وغيرهـا مـن التراكيـب التـي يقـعُ فيهـا المصـدر (كـون) موقِـعَ الدالَّـة علـى التَّعليل والسَّـببيَّة.

إذ مـن المعلـوم أنَّ «كان»: فعـلٌ مـاضٍ ناقـصٌ، يدخـل علـى المبتـدأ والخبر، فيرفـع الأول ويُسـمى اسـمها، وينصـب الثـاني ويُسـمى خبرهـا. ويسـري هـذا الحكـم على مـا تصرَّف مـن «كان» فعلًا كان أو صفـةً أو مصـدرًا، فيرفـع الاسـم وينصب الخبر مثلـه، نحـو: (كونـك مواظبًـا علـى عملـك واجـبٌ عليـك)، فالضمـير في «كونـك» مجـرور بالإضافة لفظًـا ومرفـوعٌ محـلًّا لأنَّـه اسـمٌ لمصـدر الفعـل الناقـص (كان).

ثانيًا: أصلـه

يظهـرُ أنَّ منشـأ هـذا التعبيـر هـو الترجمـة الحرفيَّـة عـن الإنجليزيـة، وأثـرٌ مـن آثارهـا التـي ابتُـلي بهـا الـكلام العـربي، كقولهـم:

He likes being alone

يحبُّ كونه وحيدًا

Happiness never decreased by being shared

السَّعادةُ لا تنقص بكونها يُشتَرَكُ فيها

Being good man makes people like you

كونك رجلًا صالحًا يجعل الناسَ يُحبُّونك

يقول الدكتور صلاح الدين زعبلاوي عن هذا التَّركيب: «**ويبدو أنَّ التعبير أجنبيٌّ أقحموه في تعبيرهم بالحرف إقحامًا**»[1].

ثالثًا: نقضه

لا يصحُّ هذا التعبيرُ لما يأتي:

١- ليس ثمَّة نصٌّ أو شاهدٌ فصيحٌ يؤيِّد هذه العبارة المستحدَثة التي شاعت شُيوعًا كبيرًا في الكتابات المعاصرة في شتَّى المجالات، «وفشا في لُغة مُثقَّفينا وأُدبائنا عامَّةً»[2].

٢- لا موضع لهذا المصدر هنا ولا معنى له، والتركيب على هذا النحو مضطربٌ، لا رابطَ يجمع بين أجزائه؛ لأنَّ سياقَه سياقُ تعليل؛ فيقتضي استعمال أداةٍ من أدوات التَّعليل، وليس من معاني «كان» التَّعليل.

٣- موضِعه هذا بهذه الصُّورة يستدعي إعرابَه مفعولًا لأجله، غيرَ أنَّه لا يمكن أن يُعربَ هذا الإعراب؛ لأنَّ شُروط المفعول لأجله خمسة:

- أن يكون مصدرًا.
- أن يُفْهِم عِلَّة (**أي: يُفيد التَّعليل**) فهو صالح لجواب السؤال: لماذا؟
- أن يكون قلبيًّا (**أي: مِنْ أفعال النَّفس الباطنة، كالرَّغْبَة، والْحُبِّ، والْخَوف**) وليس من أفعال الحواس الظاهرة، كالضَّرْب، والقِراءة، والمشْي، والأكْل، والقَتل.
- أن يكون مُتَّحِدًا مع عامله في الزَّمن.
- أن يكون مُتَّحِدًا مع عامله في الفاعل.

وتتحقق هذه الشروط في قولنا: كتبتُ هذا المقال رغبةً في الحفاظ على سلامة اللُّغة العربيَّة. فـ«رغبةً» مفعول لأجله منصوب؛ لأنه مصدرٌ قَلْبي من أفعال النّفس الباطنة، ويُفيد التعليل؛ لأنَّه بَيَّنَ سبب وقوع الفعل «كتب» وهو مُتَّحد مع الفعل في الزمن، فَزَمَنُ الرَّغبة هو زمن الكتَّابة، ومُتحد مع الفعل في الفاعل؛ لأن فاعل الرَّغبة هو نفسه فاعل الكتابة.

أمَّا إذا تخلَّف شرطٌ من هذه الشُّروط فيجب عندئذٍ الجرُّ بحرفٍ من حروف التعليل، نحو أمثلتهم التي ذكرناها آنفًا، فلا تنطبقُ عليها هذه الشروط؛ لأنَّ فاعلَ الكينونةِ غيرُ فاعلِ الإحالة، وزمنَ كينونته من مواليد ١٩٥٦ غيرُ زمنِ إحالته، ومِثلُه الـمُعاقِب غيرُ المتأخِّر، وزمنُه غير زمنه؛ لذا يجبُ جرُّه بلام التعليل، ناهيك بمسألة الدَّلالة على الحدَث في «كان» وأخواتها الذي منعها فريقٌ من النُّحاة، منهم المبرِّد وابن السَّرَّاج والفارسيُّ وابن جنِّي وابن برهان والجرجانيّ والشَّلوبين، وهو ظاهر مذهب سيبويه.

---

(١) معجم أخطاء الكتاب: (٥٣٣).

(٢) التَّعبير الصحيح: د.نعمة رحيم العزَّاوي: (٦٥).

رابعًا: بدائله

العربيَّةُ ملأى بالبدائل الفصيحة في هذه السياقات، وفيها مندوحةٌ عن هذا الاستعمال المُهَلهَل الذي لا إحكام فيه، ولا رونقَ له[1].

منها :

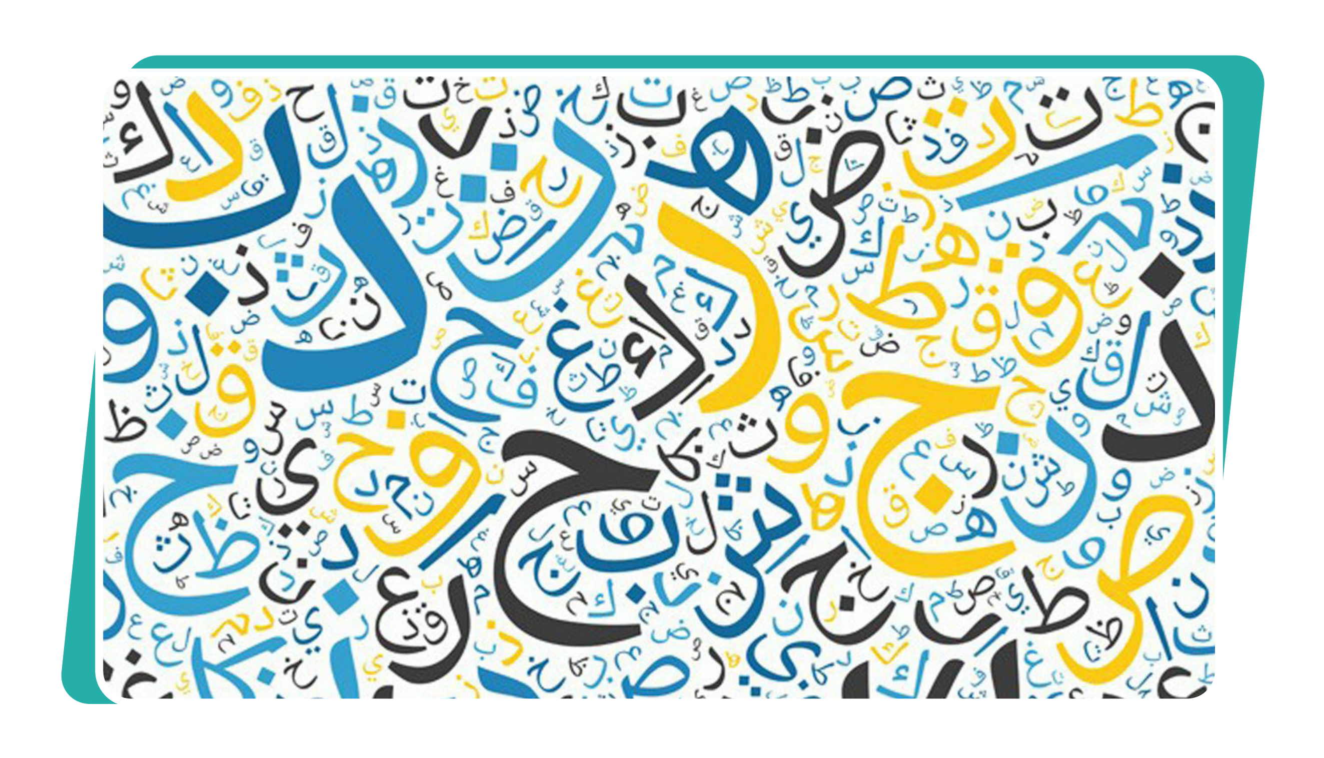
١ -استعمال الأدوات الدَّالة على التَّعليل في الفصيح من كلام العرب، نحو: لأنَّه...، وبسبب....

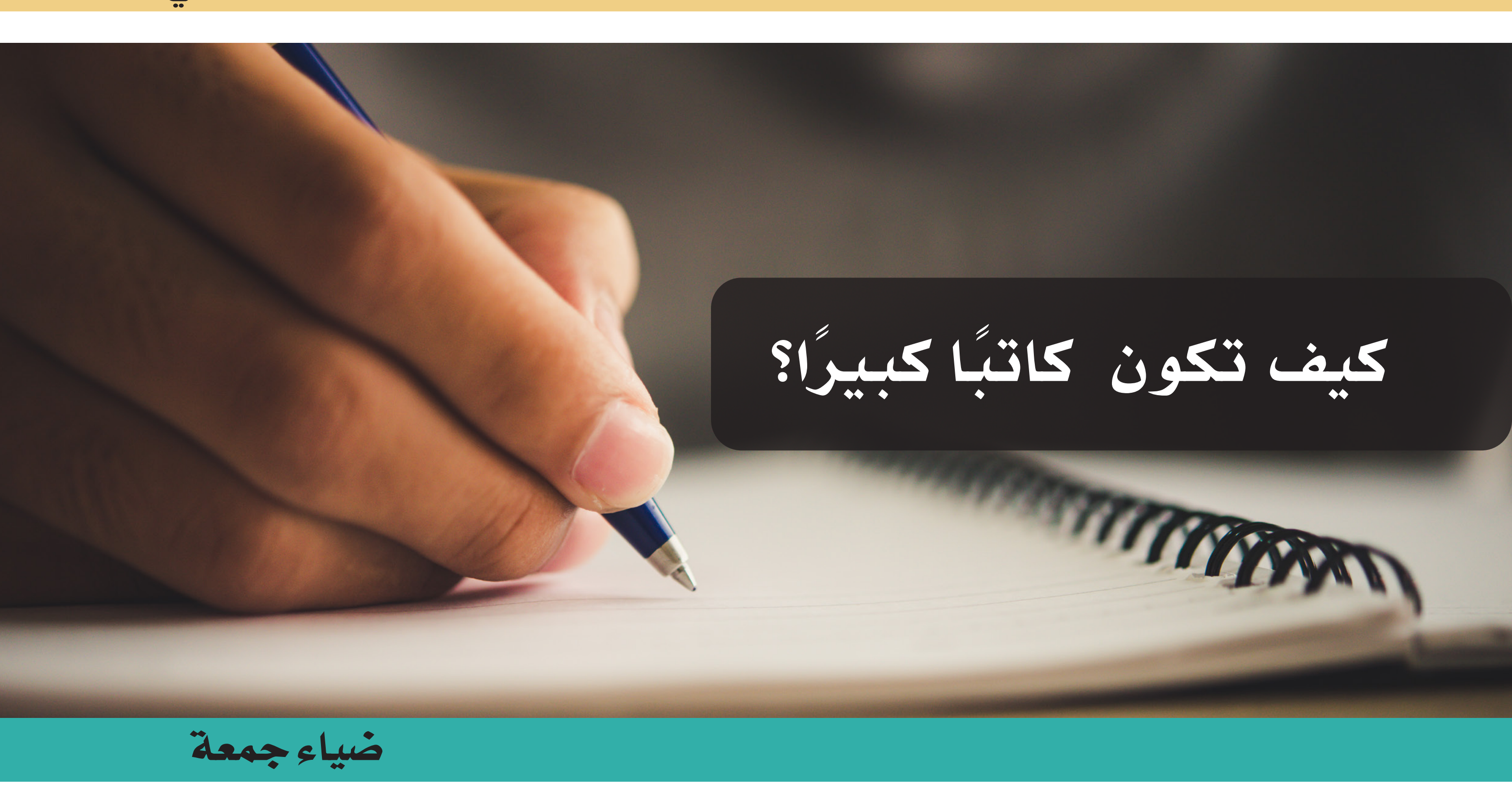
٢ -الاكتفاء بلام التعليل مع مصدر الفعل المراد، نحو: أُحيلَ السَّيِّد فلان إلى التقاعد؛ لبلوغه السنَّ القانونيَّة للتقاعد، ونحو: عُوقِبَ الموظَّف؛ لتأخُّره عن الدوام.

٣ -إضافة لام التعليل أو باء السببيَّة على المصدر«كون»، نحو: لكونه...، وبكونه... بحسب ما يقتضيه سياق الجملة، وما شابه ذلك من أساليب التَّعليل والسَّببيَّة التي تَحفِلُ بها اللُّغة العربيَّة.



(١) ينظر: التَّعبير الصحيح: د.نعمة رحيم العزَّاوي: (٦٥).





كيف تكون كاتبًا كبيرًا؟

ضياء جمعة

لعل العنوان في أولِ وهلة له يبدو تجاريًا، وتسويقيًا، كخُدعةِ بعض الكُتب التي يُكتب على غلافها جزافًا (الأكثر مبيعًا).

هي طريقة تسويقية بغضّ النظر عن صحتها.

وأنا هنا لم أَجِد طريقة أخرى لإقناعكم بأنّ هذا المقال سيرسم الطريق أمامكم نحو كتابة كتابٍ يستحق القراءة.

وعلى أيةٍ حال: الكتابة فن فطري قبل أن يكون تعليميًّا، والكاتب يُولد ليكون كاتبًا، ولا يمكن أن يكون كاتبًا بقراءةِ مقالٍ أو كتابٍ أو مشاهدةِ فيديوهات على اليوتيوب...!

هي ربما تُدربكَ، وربما تُنمي طاقة داخلية فيك، وربما تُشعل جذوة الذائقة فيك، لكنها حتمًا لا تعلّم شخصًا غير موهوب، وغير مجبول على الكتابة والتعبير وسبك الجمل والعبارات...!

وأنا لا أدعي أنّ قراءة المقالات في هذا الشأن لا تُحرك روح الكتابة، ولا تضبط بوصلة الموهبة، وقرار الكتابة، فهذا شيء لا يكاد يختلف فيه أحد، فـ«مالرو» حلم في شبابهِ أن يكون طيّارًا، لكنّه بعد أن أهداهُ أستاذه «بول فاليري» رواية «المُقامر» لـ«دستويفسكي»... قرر أن يُصبحَ كاتبًا!

إذن المقالات في هذا الفن، والكتب في هذا الميدان تُقوّي المَلكة، ولكن لا تصنعها، ومن أراد الكتابة، وتقويتها، وتعزيز وجودها، فعليه بالقراءة أولًا، ثم القراءة ثانيًا، ثم القراءة ثالثًا وأخيرًا... فوحدها القراءة التي تعطي الخيال،

وتزيد في المفردات، وتشحن في الأفكار، وتجدد الأساليب، وتُعظم في الإبداع، وهذا يجرّنا إلى الإجابة على سؤال غابر، وحيرة قديمة... ماذا أقرأ...؟

والإجابة بكل وضوح:

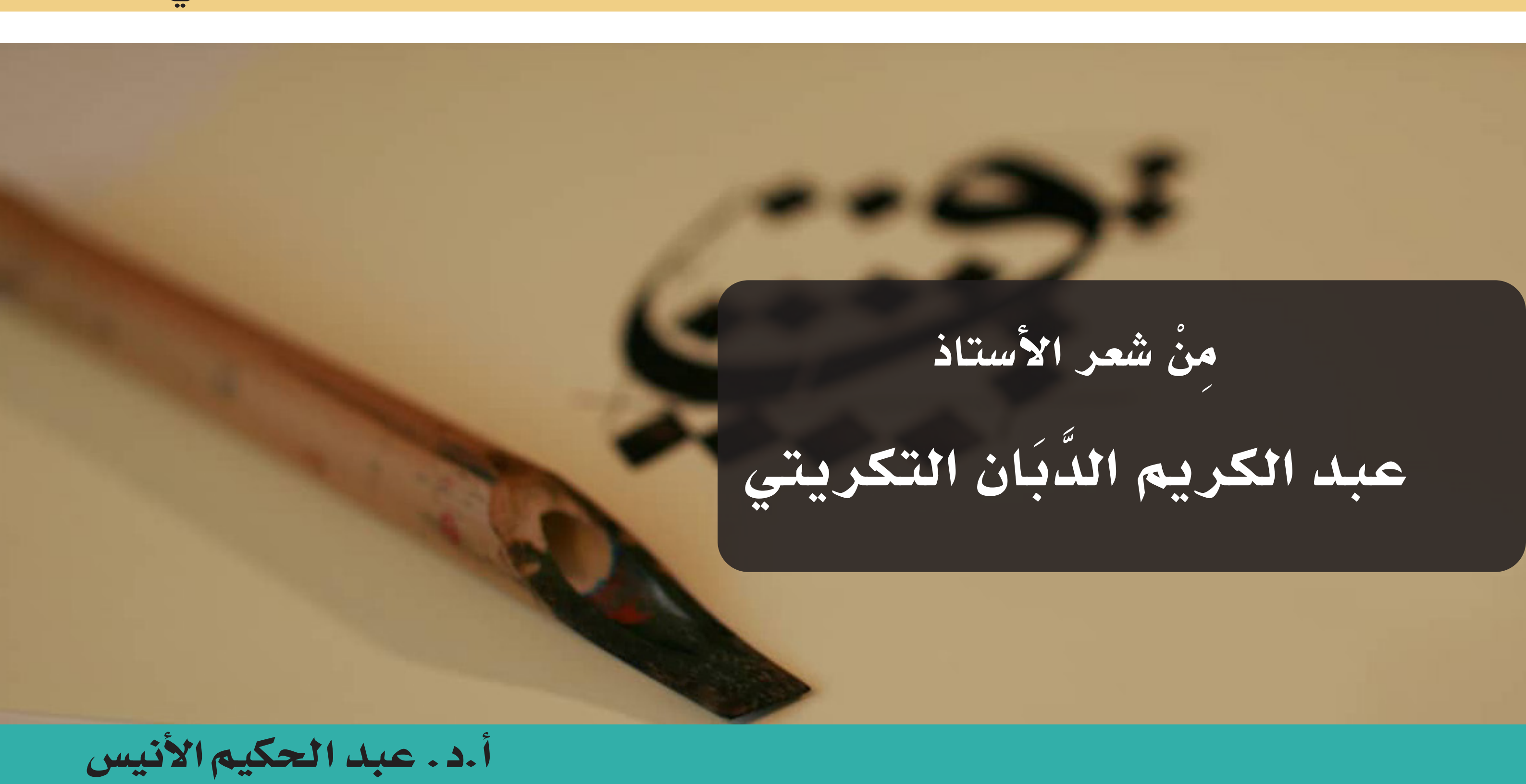
القراءة نافعة في كل حال، وفي أي مجال، ولا يمكن أن تكون كاتبًا مبدعًا حتى تكون قارئًا مميزًا، فعليك أن تتزود ليلًا، ونهارًا، من تلاوة الكتاب العزيز، ومن أحاديث المصطفى -عليه الصلاة والسلام-، فنور الوحي هو المشكاة الأبرك لمن أراد الفلاح والنجاح... ويجمُل بك أن تضمّ معهُما قراءة ديوان العرب وتراثهم شعرًا، ونثرًا، قصصًا، وحكايات، وعليك أن تبدأ بالمعلقات، وبشعر الإسلاميين، وفصاحة الأمويين، ومَلاحة العباسيين، وجمال الأندلسيين، والإدمان على شعر المتنبي خاصة، وإدامة النظر في آثار ابن المقفع عامة، ورسائل الجاحظ، وكتب ابن قتيبة، وتراث ابن الجوزي، ثم أطِل التأمل في مطالعة كتاب الصناعتين للعسكري، والمثل السائر لابن الأثير، وأكثر من مراجعة أساس البلاغة للزمخشري.

وإياك أن تظن أنّ مثل هذه الكتب تصنعك وحدها، بل لا بد من الخبرة والتجربة الجادة، والمُمارسة المستمرة، مع سنوات طوال، وربما أدركك التوفيقُ، فتبلغ المجد في سنة واحدة!

فلا تتوقف عند القراءة، والمطالعة، بل لا بد من الحفظ، والضبط، والإتقان، حتى تكون الفصاحة فيك طبعًا، وتكون البلاغة عندك سجية لا عسر فيها ولا تكلُّف.

ثم بعد الخزين المعجمي، والخيال الأدبي، وتكويّن ملَكة الكتابة، لا بد من الشروع في أوَّل خطوة نحو الإبداع والكتابة، وهنا تبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة حجَر الأساس في صناعة أول مولود، ومخاضة أول كتاب... والذي يبدأ بالعنوان ثم الغلاف ثم المقدمة، والمحتوى، ثم الخاتمة، ولعلي أعرج عليهن واحدة بعد أخرى في مقال لاحق كي يكون أكثر بركة، وأشمل نفعًا، وأدق تعبيرًا، وأرحب تفصيلًا، والله الموفق، وهو الهادي إلى سبل الرشاد.





مِنْ شعر الأستاذ
عبد الكريم الدَّبَان التكريتي

أ.د. عبد الحكيم الأنيس

أعلنتْ وزارةُ المعارف في العراق عام (١٩٣٧م) تقريبًا عن رغبتها في توظيف معلِّمين، وقيل للأستاذ الشيخ عبد الكريم الدَّبَان التكريتي (١٣٢٨-١٤١٣)[١]: لو تقدمتَ للتوظيف؟ فأبى، فلامَه بعضُ الناس.

في هذه الأجواء قال قصيدةً فائيةً في أكثر من ثلاثين بيتًا، ولم يَحتفظ بها، وقد كتبَها عنه تلميذُهُ الشيخُ عبدُ العزيز بنُ سالم السامرائي (١٣٣٢-١٣٩٣)[٢]، ورواها من بعدُ لطلابه فحفظوها، أو حفظوا منها، ومما بقيَ في ذاكرتهم هذه الأبياتُ التي أسوقُها هنا[٣]، وقد عرضتُها على شيخِنا ناظمِها (عام ١٤٠٥-١٩٨٥م) ضمنّ أشياء أخرى، فلم يعلِّقْ، ولم يُعدِّلْ منها شيئًا، وهي هذه:

ألمْ يأنِ للعُذّال أنْ يَتوقَّفوا
عن اللومِ والإزراءِ أو يَتلطَّفوا

ألمْ يعلموا أنْ ليس يُجدي ملامُهُمْ
فإنَّ الكريمَ الحرَّ بالعزِّ أعرفُ

يقولون لي لمّا رأوا نزْرَ مكسبي:
أتبقى بضيقِ العيشِ والغيرُ مُتْرَفُ؟

أتبقى مقيمًا ها هُنا مُتمسِّكنًا
ومَنْ دُونَك ارتاحوا وطرًّا توظَّفوا

---

(١) يقابله في الميلادي (١٩١٠-١٩٩٣).

(٢) يقابله في الميلادي (١٩١٤-١٩٧٣).

(٣) استمليتُها من الأستاذ الشيخ عبد الملك بن عبد الرحمن السعدي، وأسوقُها كما كتبتُها عنه -حفظه الله-.

وأملاني شيخُنا الشيخ إبراهيم بن رحيم الهيتي (ت: ١٤٠٤/١٩٨٤) -رحمه الله- سبعة أبيات (هي: ٥، ٧- ١٢)، تشتركُ مع رواية الشيخ عبد الملك السعدي في خمسة، وتنفردُ ببيتين (هما الثامن والتاسع)، وتخالفُ في ألفاظٍ يسيرةٍ سأبيِّنُها.

وسارعْ[1] توظَّفْ فالمَعارفُ أعلنتْ
لَمَنْ بانَ للتدريسِ أهلًا تُوظَّفُ
فقلتُ لهم: أكثرتمُ اللومَ أنصفوا
فما بالُ مَنْ يأبى الهوانَ يُسَخَّفُ

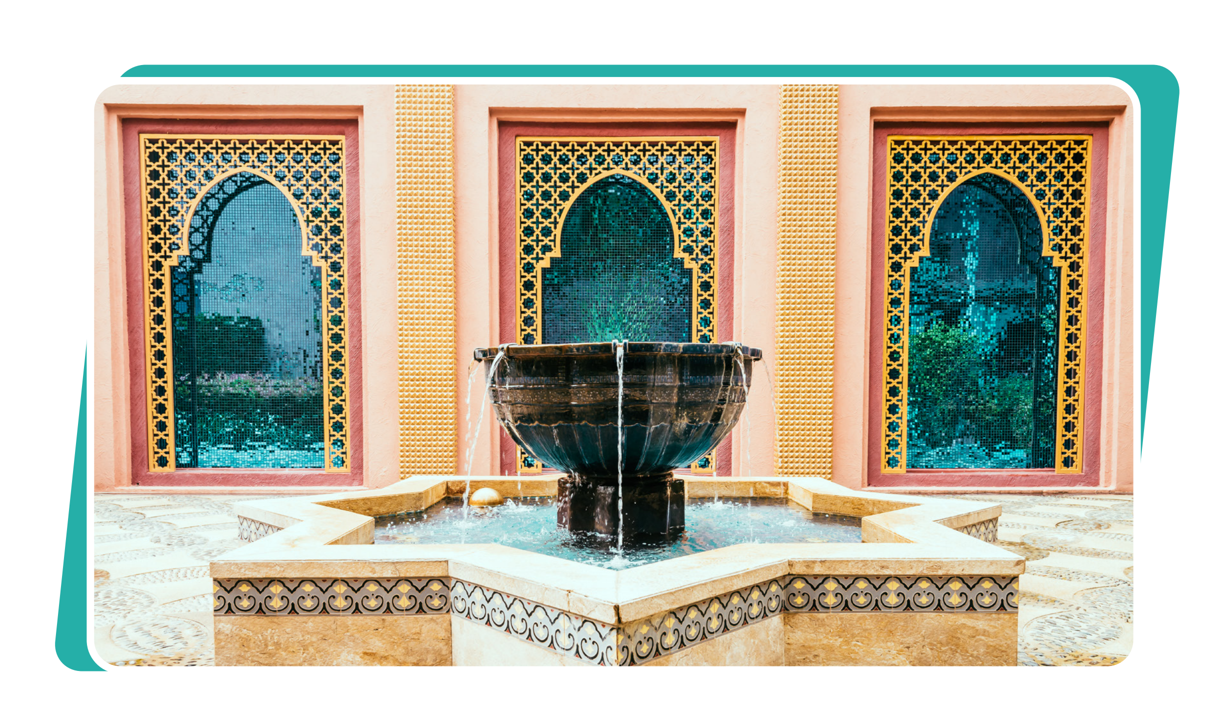
ومنها:

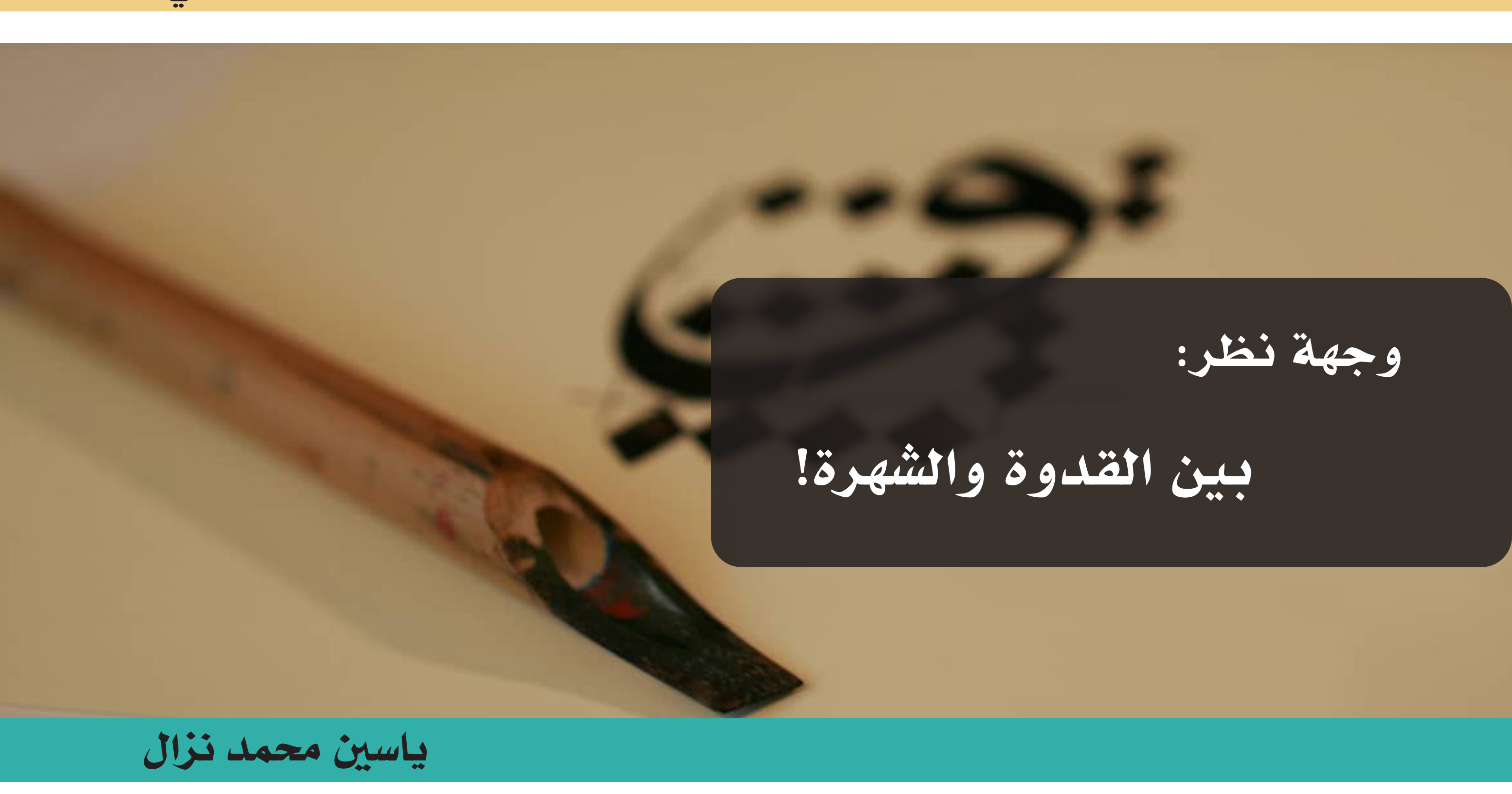
فأركضُ[2] عَدْوًا إنْ دعاني مُفتِّشٌ
وأخضعُ ذلًا للذي يتغطرَفُ
وأشهدُ أربابَ ....[3]
ومَنْ همُّهُ الأسنى قمارٌ وقَرْقفُ
وما كنتُ قد هاجرتُ للعلمِ طالبًا
لأبغيَ ممَّنْ جاهُهُ اليومَ يُعْرفُ

فلنْ أخضعَ النفسَ العزيزةَ للورى
ولـو صرتُ مِـنْ مُـرِّ الحناظـلِ أنقُـفُ[4]
فكم ليلةٍ أحييتُ والناسُ نوَّمٌ
أنادمُ فيها ما لنا القومُ خَلّفوا
فيغمرُني هذا الكتابُ بما حوى
ويسحرُني باللطفِ ذاك المُصنّفُ[5]



(١) رواية الشيخ الهيتي: وقالوا.
(٢) رواية الشيخ الهيتي: فأسرعُ.
(٣) هنا كلمتان مطويتان.
(٤) رواية الشيخ الهيتي:
فلنْ أخضعَ النفسَ العزيزةَ لحظةً   وإنَّ الكريمَ الحرَّ بالعزِّ أعرَفُ
ويبدو لي أنه مركبٌ من بيتين.
(٥) رواية الشيخ الهيتي:
فيسحرُني هذا الكتابُ بما حوى   ويغمرُني بالطيفِ ذاك المصنّفُ





وجهة نظر:

بين القدوة والشهرة!

ياسين محمد نزال

لا أظن أحدًا يخفى عليه معنى «القدوة» ومشتقاتها...قاد...يقود وقائدًا وقيادة... فجميعها تحوم حول اتخاذ مثل أعلى في شيْء ما أو مطلقًا. والقدوة –أو القائد في شيء مَا- لا يكون كذلك إلا إذا كان مثلًا يُقتدى به، ولا يمكنه أن يصير مَثَلًا إلا إذا كانت أقواله تطابق أفعاله على أرض الواقع على قاعدة (سدّدوا وقاربُوا). فلا يُتصور أن تَتّخذَ –أيها العاقل- فلانًا قدوة في شيءٍ ما إلا إذا كان لديه الأثر الواضح على أرض واقعك أنتَ لا هو، فالأمرُ لا علاقة له لا بنسبٍ ولا بمركز اجتماعي ولا بغنى أو فقر وإنما بما يتركه هذا القدوة من أثر يحفز به النفوس وإن لم يكن من عِلية المجتمع –مع تحفظي على هذا التعبير!-.

فهذا هو المعنى الحقيقي للقدوة والقيادة -أو أن تكون قائدًا -ضمن حدود مسؤوليتك- وهو معنى نبوي شريف معلوم: يقول النّبي ﷺ: **(كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته)** فهذه قاعدة ثابتة جامعة وضعت مسؤولية القيادة في رقاب الجميع بدون استثناء!

والمسلم حينما يقتدي بالنبيّ ﷺ أو حينما يوجِّهُ غيره لذلك فهذا ليس اختيارًا، بل بأمرٍ تعبّديّ؛ فالمسلم مأمورٌ باتّباع سُنّة النّبي ﷺ وذلك بتجنّب النواهي وفعل الأوامر قدر الاستطاعة والتحلي بأخلاقه العالية. وَلما سُئلت عائشة عن خُلقه ﷺلخصّت ذلك بقولها: «كان خلقه القرآن»، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]. فنبيُّنا ﷺ أشرفُ من يُتخذ



قدوة في حياة الفرد والمجتمع للنّجاة والظفر بحياة أبدية آمنة مطمئنة منعمة!

ولكنْ...

بعضُ النّاس يخلط بين أن يقتدي بشخص -من مجتمعه -أو مِن خارجه!- مَنْ يستحق ذلك، وذلك لما لدى هذا المتبوع مِن الأثر الإيجابي على أرض واقعه كصدقٍ في التعامل وكرم وجود وشجاعة واهتمام بشؤون المسلم أينما كان – وكيفما جاء-، وبينَ أن يقتدي بشخص ليس لديه سوى أرصدة بنكية ومركز مرموق وشهرة استطاع أن يحقق كل ذلك في فترة قياسية بالنظر إلى متوسط عمر الإنسان وبقطع النظر عن الوسيلة!

ولو سُئل هذا الفرد المغترّ ماذَا رأيت في مثل هكذا شخصٍ حتى تتخذه قدوة لك؟ أو عدِّدْ لَنا بعضًا من أوصافه أو أعماله التي بها استحق –في نظرك- أن يكون قدوةً لك ولأبنائك ولمجتمعك ولأمتك؟!

فربما تعلثم... إذ لن يتمكن من العثور على شيء ذي قيمة سوى ما ذكرته لك سابقًا – المركز...المال...الشهرة...القوة...!

والمقصود أن ينتبه العبدُ إلى مثل هذه الدقائق فهو مأمور كغيره، بينما سيكون مسؤولًا –وحده!-أمام الله تعالى في اختيار من يقتدي به سواء في السوء أو الحسن! فإذا كانت هذه القدوة التي اتخذها حسنة فنعمّا هي من قدوة، وأمّا إذا كانت سيئة فليس لنا إلا تذكّر قوله تعالى:﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾! هذا الكلام الذي ينبغي أن يضعه كل فردٍ في ذهنه، وأمام ناظريه، وينسخه على أسوار غرفته وبيته ومكتبه، ويضعه على حائط أجهزته كيلا يَنسى!

وكلّ ذلك...

ليحذر المسلم عواقبَ هذا الأمر وليجتهدَ دائمًا على أن يقتدي بصادقٍ أمينٍ يدله على الخير والهدى الذي سيقوده إلى الأمان والنعيم الحقيقي الأبدي! وخير الهدي هدي نبينا ﷺ.

فهذا هو دأب أي قائد حقيقي يصلح أن يكون قدوة –في حدود مكانه وإمكاناته!- لا ذاك المزيف الذي لا يهمه سوى الركض وراء شهوات باطنة ونزوات باطلة؛ فتراه يكتنز المزيد المزيد، وإذا نظرتَ فيمن ينتفع منه ويهتم بشأنهم... فهذا أمر آخر عجيب...!

...(والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون)...

...فاللهم سدد الخطى!





تنمية بشرية!

علي حسين السنجاري

انكفأتُ في مرحلةٍ ما من حياتي على كُتب التنمية البشرية، كُنتُ منبهرًا بها وبكمية الأفكار التي تُطرح بشكل أنيق وجذّاب، فأخذتُ أُدوّن الاقتباسات والمبادئ التي تأسرني، وأحفظ القصص التنموية المؤثرة، وأكتنزُ المعلومات بتراكمية.

تصرَّفْت في أزمنة كثيرة من عُمري بالتَبَحُّر في كتب التنمية البشرية، التي تدعوني أن أوقِظ المارد الذي بداخلي، أو الوحش، وتشجعني على ممارسة النجاح كأنني حائِزُهُ وكأنه كائنٌ فيَّ، وتُطلق دعواتٍ لتعلُّم فن القيادة، فن الإدارة، طرُق التواصل مع الناس باحترافية، لغة الجسد، حركات العين وتبعاتها المقصدية... إلخ.

تشرَّب فِكري القدر الكافي من هذه الأفكار، و تشكَّلتْ عندي عادات مُستَنِدة عليها؛ واطمأنَّتْ روحي إلى هذه الملَكَة التنموية الكافية التي رُزِقْتُ سِرّها، وأقررتُ بيني وبين ذاتي المستقرة بأنَّ شيئًا لن يَكسر عزيمتي بعد اليوم، وأنَّ اليقين لن يُفارقني، فاستفدتُ الشيء الكثير.

لكن، في حينها لم أكُنْ قد اختبرتُ بعد تجربةً تُزعزعُ هذا الاستقرار، أو صدمةً تستفز الاطمئنان؛ إلى أن وقعتُ في الفخ، فخ المثاليات المُرَكَّزة؛ مثاليات عالية بعلوِّ السماء، تُرى ولا تُمَّس، تُستعمل للقياس فقط والمقارنة..

وفي لحظةٍ ثقيلة طويلة -لم تعبُر كبقية اللحظات العابرة- غُلِّقَت الأبواب في وجهي ، فتزعزع الاستقرار و دخلتُ في صدمة كبيرة نتجتْ عند إدراكي حجم اتساع الفجوة بين

التنظير والتطبيق.. لم أستطع أن أستخدم هذا الكمّ الكبير من المهارات التي قرأتها وحفظتها، في ترويض يأسي المُنْفَلِت في تلك اللحظات الصعبة.

المشكلة أنّني أسهبتُ في تَلَقُّف تلك الأفكار من فضاء تلك الكتب، من غير أن أخوض في أبجديات حقائقها وصحة المعلومات المُرتَكِزة عليها، و أخذتُ أستَقبِلُ المِثَاليات بدهشة أفقدتني الحرص على تطبيقها والعمل بها؛ فأنتجتْ عندي فجوةً كبيرة بين ما أعلمه وما ينبغي أن أعمله، وبين المعرفة والإدراك، وهذه برأيي الأمر الذي ينبغي أن ينتبه إليه كل من يقرأ كتب التنمية: الانتباه إلى مراقبة الأفكار المقروءة من حيث الفكرة ومنطقيتها، ومدى قابليتها للتطبيق في الواقع المعاش.

والمشكلة الثانية هي كثرة الكتب المطبوعة في هذا المجال والتي تحمل جميعها عناوين غير نمطية، خارج صندوق المألوف، تجذب العين، أو تحمل ذلك الطابع المسمى «الكتاب الأكثر مبيعًا» وفي الحقيقة يكون الكتاب عاديًا جدًا، بالإضافة إلى التكرار الغزير الذي يُورثُ الملل ويدور كله حول نقاط ثابتة؛ كما أنك قد تجد في كثير من هذه الكتب اقتباسات مُتبادلة، كتاب يقتبسُ من كتاب، مكوّنين شبكة مكررة من الاقتباسات والأفكار المتناقلة.

وهنا، أنا لا أدعو إلى ترك هذه الكتب والابتعاد عنها، بل على العكس، أنا لا زلت مفتونًا بها وأُشجِّعُ على قراءتها، لكن وددتُ أن أمنح القارئ قبسًا من نورِ تجربةٍ طويلة، و طريقًا أكثر واقعية، لذلك إذا كُنتَ قارئًا فإنك ستقرأ -حتمًا- كتبًا في التنمية؛ فأقرأ بعناية ورَويّة، حتى يتسنى لك تقليب الأفكار على بعضها وتبنيها بعد الاقتناع، واحرصْ على اختيار الكتب المفيدة في هذا المجال عن طريق السؤال والبحث، واحرصْ كلَّ الحرص في توجيه مَن هُم في طَور الرعية لديك: أبنائك، طلابك، موظفيك أو زملائك... إلخ، توجيهًا محدّدًا، وأن لا يُضيّعوا الوقت في الأفكار المكررة.

وليكن في بالك، كتابًا واحدًا في التنمية البشرية، كلّ ثلاثة أشهر أو أربعة يكون كافيًا جدًا، بشرط أن تحاول تطبيق الأفكار المطروحة، والصبر على ممارستها، وانتظار نتائجها، فإن ذلك أكثر نفعًا من محاولة الإكثار والاستزادة في الكتب دون إخضاع الفكرة للتنفيذ.

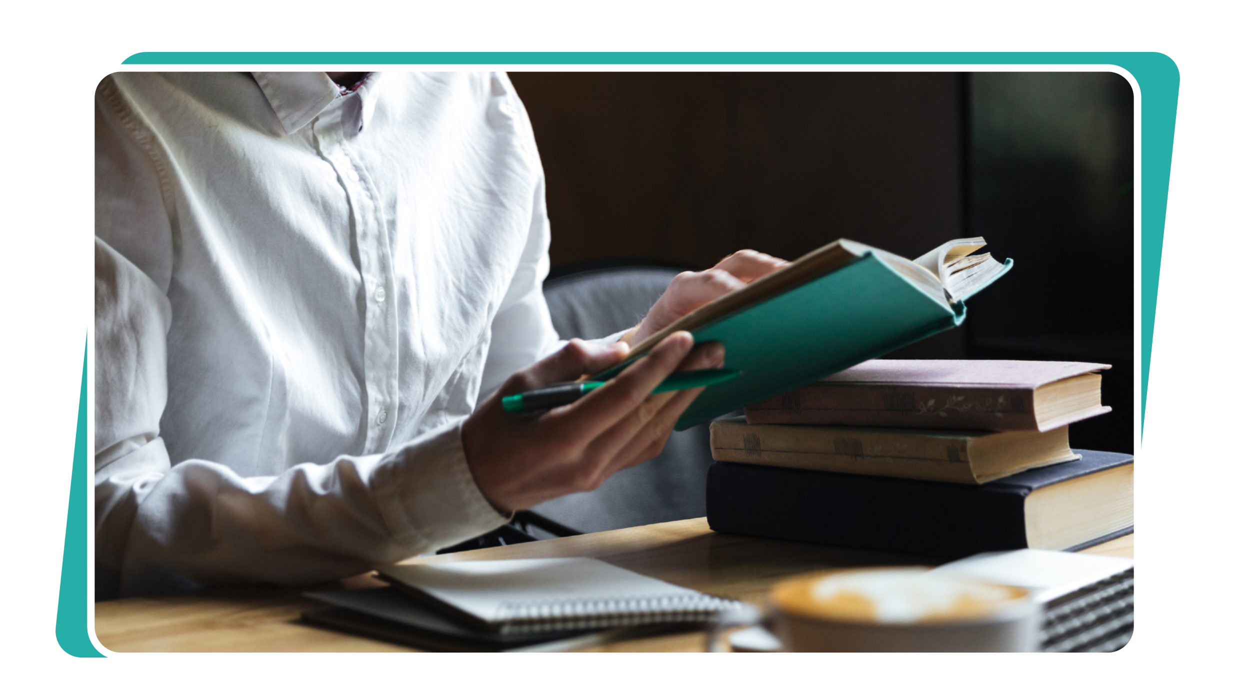
وتذكَّر دئمًا أنّ هذه الجملة: «الكتاب مبيّن من عنوانه» هي جملة خاطئة على الصعيد البنيوي والتفصيلي، فالعناوين والأغلفة هي المظاهر، والمظاهر غالبًا لا تُصرّح بحقيقة البواطن!

بالإضافة إلى ما ذكرتهُ أنفًا، فأن في كتب التنمية البشرية الكثير من المغالطات العلمية الموضوعة؛ ما وضعت إلا للتعبئة السردية أو لبناء صورة برّاقة في محاولةٍ لصناعة وسيلةٍ للجذب وتسويق المنتج، أو بناء هالة إعلامية لغرض امتطاء جواد الشهرة، وهذا لَعمْري أحد أهم الأسباب التي جعلتني أعيد النظر في كتب التنمية البشرية.

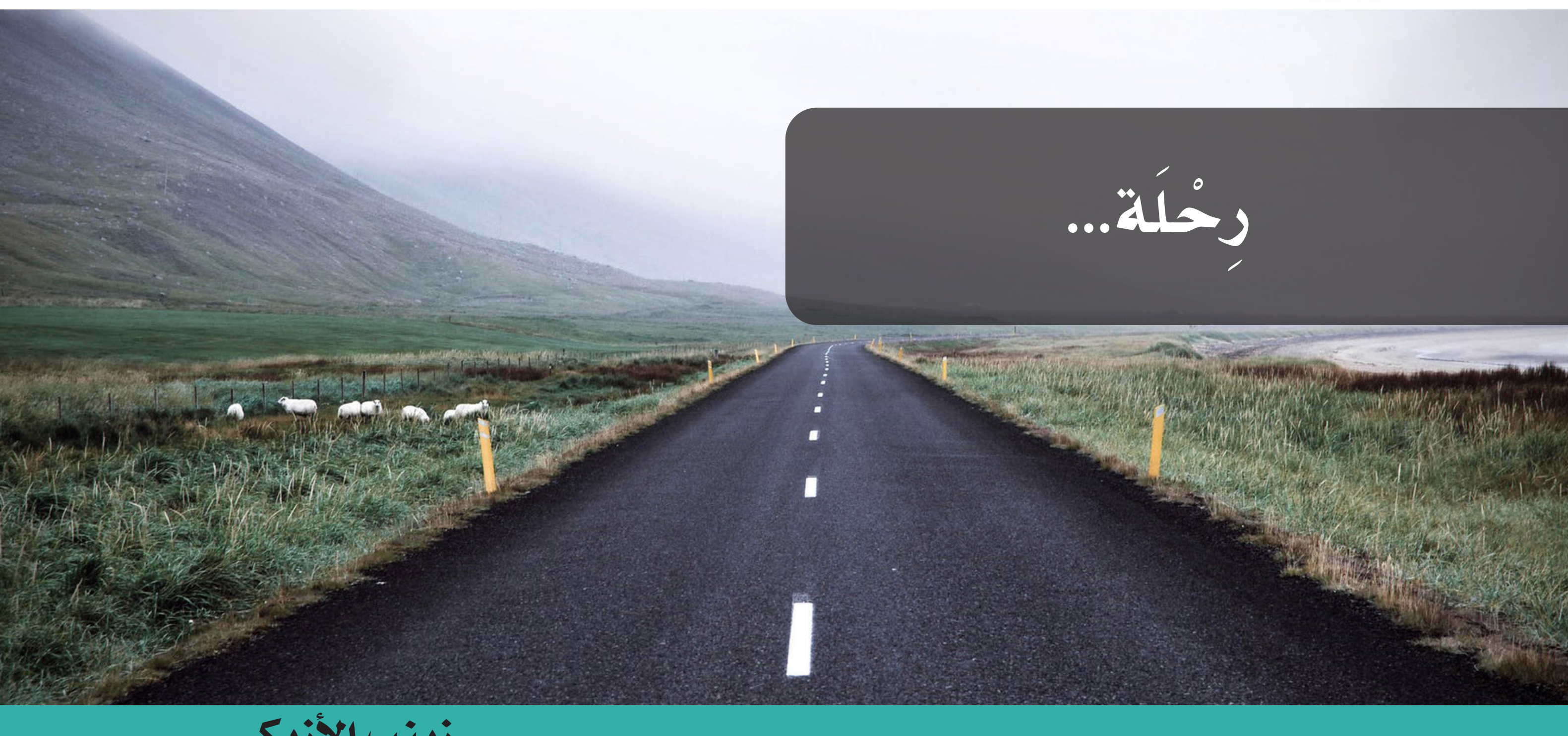
في النهاية: علْم التنمية البشرية ليس جديدًا، تُلمسُ أثاره في التواريخ البشرية بمسمّيات مختلفة، كالقصائد الحماسية، والرسائل الأدبية الذكية، رسائل الكُتّاب المستفيضة، خطابات التحفيز أثناء المعارك، اهتمام الملوك بتعلّم مَهارات القيادة... وغيرها الكثير.

بعض الكُتب أصدقاء، وبعضها مُدن، ولذلك ينبغي أن تختار صديقك بعناية، وتختار المدينة التي ستسكن فيها وتسكن فيك بعناية أيضًا.









رِحْلَة...

زينب الأزبكي

هل تشعرون أنّ العدد الذي تُشير إليه أعماركم أكبر أم أصغر من شعوركم بالمشوار الذي قطعتموه؟؟ أم هما متكافئان؟؟

لن تبدأ بطرح هذا السؤال إلّا عندما تنسى أين وضعت نقودك، مفاتيحك...

مضت بنا الأيام دونما شعور بالأرقام ولكن الزمن كان مجدًّا لم يتوانَ في أداء واجبه.

وطريق العمر هذا باتجاه واحد.. أنت تسير إلى الأمام فقط.. هكذا هي الشروط كي تبقى الوجهة الصحيحة.

أتذكّر في بداية العقد الثاني من عمري كنت أحسب كم سأبلغ من العمر عام (٢٠٠٠)؟ لأني كنت أراه رقمًا كبيرًا وبعيدًا..

في أرض العشرينات تشعر بخفة المشي وانتعاش الروح، جموح الأفكار، علوّ الطموح، جمال الأحلام لم أبحث عن دليل يرشدني لأني في الحقيقة عشرينية أمتلك فورة الشباب، وما طرحتُ يومًا سؤالَ الساعة «ثمّ ماذا؟».. هكذا وببساطة انتهت بحلوها ومرّها.

كانت تخيفني فكرة الثلاثين! وكأنّ تجاعيدَ مختبئة تحت السرير وشعرات بيضاء ستلتصق بك على المخدة، ربما لهول تحذير إعلانات التجميل والعناية.

في أرض الثلاثين بدأت أبحث عن دليل ينتظرني مرحِّبًا يقول «**مرحبًا أيها الثلاثيني لقد سبقتُك إلى هذا المكان وأودّ إطلاعك على سياسة المكان، استمتع**».

لكني لم أستمتع لم أنتبه لـ«استمتع»!

ورغم خوفي من هذه الثلاثين إلّا أني لم أعدّ العدّة ولم أفهم الدرس لكي أستعد للأربعين، دخلت الأربعين وكان دليلي هذه المرة صامتًا لم يرحب بي لأنني دخلتها مجبرة حيث بدأت تجاعيدي تولد وشعيراتي البيضاء الساخرة من أنواع الأصباغ تنظر إليَّ باستهزاء: أنت هنا رغمًا عنك، هكذا سمعتها تهمس في أذني، أتعبتني وأشغلتني فكرة الأربعين ولم أستمتع أيضًا!

وأخيرًا مرحبًا بكم في دنيا الخمسينات، وبعد أن ذهب كل الشباب أردتُ استعادته!

الجميل في الأمر أن دليلي هذه المرة حادّ الذكاء، استطاع أن يخفف الحزن بكلمات كالسحر قائلًا: تستطيعين نقض هذه المسلّمات وإنشاء سيناريوهات افتراضية.

وأحد هذه السيناريوهات أن اليوم من نهارَين وليلَين؛ فيصير اليوم ٤٨ ساعة، ولو حدث هذا فأنتِ الآن تدخلين عامك الخامس والعشرين.

وتصوري لو أنّ اليوم يتألّف من نهارٍ فحسب، واليوم الثاني هو الليل، هذا سيجعل من الشهر ٦٠ يومًا.. وهذا يعني أنني سأهنئك الآن بعامك المئة!

أرأيتِ كيف ننقض سياسة الأمور؟ الأمر ليس إلا إحصاءً رقميًا وبناءً عليه قرَّرنا أعمارنا ومسير حيواتنا ومشاعرنا... لذلك لا أفهم خوفك من الخمسينات أو دهشتك من شعورك الحيادي، أظن من الطبيعي أن تدخلي الخمسين وكأنك تدخلين غرفتك في صباح اعتيادي، لا شيء مفزع في الأمر.. تجاعيد تعودْتِ رؤيتَها ممكن، تستبدلين صبغة الشعر بأقوى منها ممكن، ولكن لا موت يتمدَّد تحت السرير يحصي خطواتك ويضبط مؤقت ساعته للانقضاض... لا، كل شيء مجهول، وكل شيء يأتي بتدريج بطيء لا محسوس... والشعور بالتقدّم بالعمر إحساس ستشعرين به في أول يوم مواجهة مع الحياة، وكلّما انتهت المواجهة لصالحك ستشعرين أنّ عمرك ما زال غضًا كأحلام الوليد... كذلك السعادة والحب والحلم والأسى... ليس لأيٍّ من هذه الأحاسيس جدول مواعيد، إنها تأتي وفق سيرورة أحداث ليس بيدنا تسييرها عادةً، فما الداعي إلى الحزن؟ ولذلك عليك أن تؤمني تمامًا أن العُمر رقم، والحياة إحساس لا علاقة له بالأرقام غالبًا.

أدركتُ الآن قولَ دليلي الثلاثيني: «استمتعي».

ولكن هل فهمتُ الدرس فعلًا؟ وهل سأستمتعُ بالآتي؟

وأنتم هل هناك من يُطمئنكم؟؟





علىٰ أعتاب ذكرىٰ السياب

حسان الحديثي

المسيح:

«المسيح» هو الشخصية الأكثر ترددًا وتكرارًا في شعر السياب، فقد ذكره كثيرًا في قصائده، كما في قوله:

بين القرى المتهيّبات خطاي و المدن الغريبة

غنيت تربتك الحبيبة

وحملتها فأنا المسيح يجرّ في المنفى صليبه

وفي قوله :

كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق

يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب

وقوله:

أم سُمّر المسيح بالصليب فانتصرْ

وأنبتت دماؤه الورود في الصخر؟

وقوله:

هبوا، فقد وُلِدَ الظلام

وأنا المسيح، أنا السلام

وقوله:

حيث المسيح يظل ليس يموت أو يحيا كظل

وهكذا يتردد اسم «المسيح» في ديوان «أنشودة المطر» وحدِه عشرين مرة، لم يكن التكرار من قبيل الصدفة بالتأكيد كما لم يكن تأثره بالأدب الإنجليزي هو السبب الذي جعل رمزية المسيح تتكرر في نصوصه، لقد كان السياب يبحث عن أمر آخر وجدَه في المسيح، أمر له ارتباط بالعلة والطب، بالبرء والسقم، له علاقة بالإنسانية الضائعة من محيطه والسماحة المفقودة في عوالمه، أمر فيه إشارتان: إشارة إلى

الحياة التي بدأت تتفلت من جنبيه كتفلت الماء من اليد الراجفة، وأخرى إلى الموت الذي صار يجول حوله كالذئب حول القاصية من الغنم.

لقد تعلقت روحه بالخيال فلم يجد كالمسيح -عليه السلام- منقذًا خفيًا يأتيه من وراء حجب الظلام والأوهام بعد أن فقد الأمل فيما حوله من حقيقة.

الشؤم:

لم تتكرر مفردات في شعر السياب كالمفردات الدالة على البؤس وقد جاءت هذه المفردات بحالين: إما بلفظ صريح مباشر كمفردة: قبر، ولحد، ومقبرة، أو كناية عنها كمفردة: موت، وثكلى، ورحيل، وجثة. ولا أتكلم هنا عن قصائد كان القبر موضوعُها وما تدور عليه رحاها كقصيدة «حفار القبور» وقصيدة «رسالة من مقبرة» حيث يكون تكرار مفردة القبر ومرادفاتها أمرًا طبيعيًا، ولكني أتكلم عن غالب القصائد، سيما تلك التي كان الحزن والظلم ما بُنِيَت عليه، فقد تكررت مفردة «قبر» ومرادفاتها في ملحمة «المومس العمياء» ثمان مرات.

أما المفردات التي تشير إلى القبر كنايةً فلا تكاد تخلو قصيدة منها، ولم تتكرر هذه المفردات في قصائده التي كتبها بعد مرضه ويأسه من الشفاء وإشرافه على الموت فحسب، بل حتى في بواكير قصائده التي كتبها في أيام حيويته في دراسته الجامعية وما بعدها، وهذه المفردات والدلالات لا تشير إلى الحزن والكآبة وحسب، بل تتعداهما إلى الإفراط «المقبول» والمبالغة «المحمودة» في وصف الشؤم والظلمة والوحدة.

فهو مثلًا في قصيدة «ليلة انتظار» والتي يخاطب فيها زوجته، يمعن في وصف ما بعد الموت، ويذهب إلى أبعد من الموت، فيذكر الديدان حين تأكل قلبه، وتشرب الأرض جسده، وينتهي كل شي إلا قصائده:

غدًا تأتين يا إقبال يا بعثي من العدم

و يا موتي و لا موتُ

و يا مرسى سفينتيَ التي عادتْ و لا لوحٌ على لوحِ

و يا قلبي الذي إن مِتُّ أتركُه على الدنيا ليبكيني

و يجأر بالرثاء على ضريحي وهو لا دمعٌ و لا صوتُ

أحبيني إذا أدرجتُ في كفني... أحبيني

ستبقى حين يبلى كلُّ وجهي كلُّ أضلاعي

و تأكل قلبيَ الديدانُ تشربُه إلى القاعِ

قصائدُ كنتُ أكتبها لأجلكِ في دواويني

أحبِّيها تُحبيني...

ولعل حالة البؤس التي صورها بدر شاكر السياب في قصائده واحدة من الفنارات الرمزية الدالة عليه، ليس ذلك وحسب، بل ابتكر لها صورًا لم تكن موجودة في الشعر العربي كتصويره للـ «صمت» بأنه شي مادي محسوس فيجعل له في «منزل الأقنان» جثةً تأكلها العصافير بأصوات سقسقاتها فتبددها:

ذوائب سدرة غبراء تزحمها العصافيرُ

تعد خطى الزمان بسقسقات والمناقيرُ

كأفواه من الديدان تأكل جثة الصمتِ

وتملأ عالم الموتِ

ثم يصوّر لنا في «المومس العمياء» أن الصمت يتغيَّر وأن شكل أعناق البط المهاجِر تزيد منه:

سربٌ من البط المهاجر يستحث إلى الجنوب

أعناقه الجذلى تكاد تزيد من صمت الغروب!

مع كل ما تقدم لم نشعر أن السياب بالغَ أو خرج عن نطاق المألوف، بل بقي قريبًا إلينا مع كل تلك السوداوية، ذلك أنه لم يتصنّع الحزن ولم يتكلّفْه في وصفه، لأنه ببساطة كان يعيشه بشكل يومي، مع كل جزئية من جزئيات حياته، فطابق الوصفُ الموصوف.

الظلم:

ليس من العدل أن ننظر إلى ملحمة «المومس العمياء» نظرةً فنيةً فحسب، بل أجد أنه من الإجحاف عدمُ النظر إلى الجانب الإنساني في هذه القصيدة التي بُنيت على مرتكزات الظلم والضعف والبؤس، ولعل الطريقة المناسبة لدراسة هذه القصيدة هي البداية فيها من حيث أرادنا السياب أن نبدأ، حين تكون الحياة هدفًا للظلم، الظلم المتمثل في حفنة زيتٍ لمصباحٍ أُصيبتْ صاحبتُه بالعمى؛ من هنا أرادنا السياب أن نبدأ.. في قوله:

ويح العراق! أكان عدلًا فيه أنك تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمنًا لملء يديك زيتًا من منابعه الغزيرة

كي يُثمرَ المصباحُ بالنور الذي لا تبصرين؟

هل هناك ظلم فوق هذا الظلم؟! حفنةُ زيتٍ ليُضاءَ مصباحُ صاحبتُه عمياء لا تهتدي بنوره، بل لا تراه أصلًا، في بلدِ الزيتُ والماءُ فيه سواء؟ أيُّ سخريةٍ هذه وأيُّ هوان ذاك؟

لا شك أن هذه القصيدة من أكثر القصائد تصويرًا للبؤس، بل أكثرها تجسيدًا للظلم الاجتماعي على الإطلاق، والمستمر ما تعاقبت مريضاتُ النفوس وما عاش ابنُ آدم بقلب جاحد.

وقد صنّف أهل الأدب هذا النوع من الشعر، فأطلقوا عليه تسمية «الشعر الوجداني» وتكون قاعدتُه ونقطةُ ارتكازه أمرًا واحدًا يجسدهُ الفقر الذي يتطور إلى العوز ثم إلى المرض أو الانحراف الأخلاقي والاجتماعي كما في قصيدة «المومس

العميـاء» ليكون المـوت أحد أهـون نهاياته.

كما أراد السياب أن يلفت الانتباه إلى أن هناك فرقًـا تجب الإشـارة إليـه بين الانحـراف الأخلاقي والانحـراف الاجتماعـي، ويجـب أن يراعـى هـذا الفـرق ويبـيّن وإن كانت النتيـجة -من وجهة نظر المجتـمع- واحدة.

قصـة «المومـس العميـاء» هي قصـةُ صَبيّة يُقتل أبوهـا الفلاح ظلمًا على بيـدرٍ للقمح، يقتله صاحب الأرض وكان يسـمى اصطلاحًـا «الإقطاعـي» ولكي يُـبرَّأ القاتل وتـبرَّر الجريمة يُتهـم المقتول بالسرقة فتُطـرد البنت من بيـت أبيها لتعيش العـوز وتُلجِئُهَا الحيـاة إلى الانحـراف لتقضيَ حياتهـا في الرذيلة، ثـم تُصـاب بالعمـى فتكـون قـد فقـدت كل شيء: أباهـا وطفولتهـا وجمالها ثم شـبابها وبصرها.

كان عـلى السـياب أن يُعطـي قصيدتـه هـذه جرعـاتٍ وافيـة مـن البـؤس والتعاسـة؛ لنقْـلِ الصـورة التـي يراها إلى ذهـن القـارئ؛ وقد فعل، ليـس ذلـك فحسـب، بل جعـل معاني البـؤس مركبة يتوالـد بعضُهـا مـن بعضِهـا، سـيما في قولـه:

موتى تخافُ من النشور

قالوا سنهرب، ثم لاذوا بالقبور من القبور!

فيصـور البـشر كأنهـم مـوتى في الحيـاة، ومـا موتهـم «الفيزيـائي» إلا هـرب مـن قبـور حياتهـم إلى قبـور مماتهـم.

كذلـك في تسـاؤلاته واسـتفهاماته البالغـة في المـرارة والتـي يقـول فيها:

مِن أي غابٍ جاء هذا الليلُ؟ من أي الكهوف؟

مِن أي وجرٍ للذئاب؟

مِن أي عش في المقابر دفَّ أسفع كالغراب؟

التركيـز الهائـل في اسـتخدام مفـردات البـؤس وتكرارهـا في قـدوم الليل: فيبدأ بوصفـه أنه قادم مـن غـابٍ، ثـم مـن كهـفٍ، ثـم مـن وجـرٍ للذئاب، ثـم في النهايـة يصفـه بالقـادم مـن عـشٍ للغراب، ولـكي يزيـد مـن قتامتـه يجعـل العـش في مقـبرة؛ فهـو يصـور الليـل صـورة مركبـة يـزاوج فيهـا بين بؤسـين أو أكـثر لتُخصـبَ ذاكرتُـه بمئـاتِ الصـور المأسـاوية القاتلة.

تـرى مـاذا كان يمثل الليل للسـياب؟ ولماذا هذه السـوداوية المفرطـة في شـعره عمومًـا وفي هـذه القصيـدة خصوصًا؟

هل كان لمرضه سبب في ذلك؟

أم لأنـه عـاش طفولـةً صعبـة تناوبـت عليه فيها أسـبابُ الحزن؟

أم لأنه السـيَّاب (العراقـي) الذي رأى في بلاده كل أنـواع القهر والظلم؟

الظلـم ولا شـك موجـودٌ، ولا تـكاد تخلـو بقعـةٌ مـن بقـع الأرض منـه، لكنْ لعـلَّ الظلـم في العراق ظلـمٌ مركـبٌ أيضًـا كمعاني السـياب.

كيميائية اللغة:

السياب يفهم كيميائية اللغة وله مختبره الخاص بمزج المفردات وإنتاج الكنايات والمعاني، كما لديه الإدراك والفهم اللّذين يؤهلانه لاستخدام هذه المنتجات في بناء الشطر الشعري بحيث يكون مفهومًا ومميزًا ومؤثرًا ثم عصيًا على الاستنساخ والمحاكاة والمقاربة، ومن ذلك ابتكاره دلالة جديدة في وصف الليل في أول شطر يكتبه في قصيدة «المومس العمياء» في قوله:

الليل يُطبق مرةً أخرى، فتشربه المدينه

والعابرون، إلى القرارة... مثل أغنية حزينه

فهو حين قال «فتشربه المدينة» يعني «تتشرّبه» المدينة؛ أي يدخل الليل في فجوات الأرض وخلل الأشجار ومسامات الجدران، يتغلغل في كل شي ليصبح السواد في كل تفصيلة من تفاصيلها حتى تمسي محضَ سوادٍ بسواد.

وإنما أعقبها بقوله «والعابرون إلى القرارة... مثل أغنية حزينة» لبيان إطباق عتمة الليل على الأبصار؛ فلا تترك للرؤية سبيلًا لنور أو كوةً لضياء فكأنه استعاض بالسمع بقوله «مثل أغنية حزينة» ليكون التشبيه سمعيًا بعد أن عُطّل البصر.

ليس ذلك فحسب؛ بل إن الظلام والعمى أطبق على المدينة في وضح النهار، وليس ليلًا فقط، والليل كان في ظلامه زيادة للعمى الذي أصابها، ويأتي ذلك مجسدًا بقوله:

عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي المدينة

والليل زاد لها عماها

كل ذلك هو تصوير لأقصى درجات البؤس بتراكيب لغوية «سيّابية» غير قابلة للأخذ ؛ لتضاعِف من شدة الوصفِ والتصويرِ، وتضاعف أيضًا من شدةِ الوقع والتأثير على المتلقي وهذا ما لا نجده عند أي شاعر آخر، وإن وجد فليس بهذه الشدة والمرارة.

مع كل تلك السوداوية ومشاعر الحزن لليتامى والثكالى والمشردين إلا أن ذلك الجسد المتهالك بين الهم والسقم كان يحوي نَفْسًا فريدةَ الحسّ عالية التأثّر، وروحًا رقيقةً شفافةً مفعمةً بالمشاعر؛ مشاعر الحب للعراق، للناس، للنخل، لبُوَيب الحَزين.

لم يكن ليعيش طويلًا مع كل هذه الأحاسيس القاتلات، فكان أن عاش قليلًا، ومات سريعًا، ولكنه ترك إرثًا عظيمًا وتحويلةً مروريةً هائلةً في مسار الشعر العربي.

التفعيلة بين الصوت والمعنى:

لقد أدرك السياب -بحس الشاعر- أنّ اللغة العربية هي لغة صوت بالإضافة إلى أنها لغة معنى، وأنّ وقْعَ الصوتِ له أهميةٌ لا تقلّ شأنًا عن المعنى، عندما وجد في شعر التفعيلة سعةً

في المساحةِ والأفقِ لتحقيق ذلك، فلم يمنعْهُ حينها مانعٌ أن ينتقل من قافيةٍ إلى أخرى طالما أن ذلك يخدم المعنى ويضاعف من وقعه في القلب، مراعيًا جرسَ المفردةِ وتأثيرها في البناء الشعري من جانب، ووقعها في أُذن المستمع من جانب آخر.

ليس ذلك فحسب، فالأمر الذي كان يعدّه الأُدباءُ والنقادُ ضعفًا في شعر العمود أصبح مصدَر جمالٍ في شعر التفعيلة وأقصد هنا «التدوير»، ليس بين الصدر والعجز وحده، بل بين البيت والبيت الذي يليه، إذ أصبح التدوير سمةً جمالية فارقة في شعر السياب، وبناؤه الانسيابي الذي راعى أهمية الإيقاع وسلاسة البناء جعلَه سمةَ جمالٍ وإمتاع.

عبقرية:

الطفولة القاسية وغربة النفس المبكرة عند السياب لم تصنع منه شاعرًا فقط، بل صنعتْ منه عبقريًا يجعل من كيمياء الكلام دموعًا، ومن الإيقاعات الشعرية لحنًا جنائزيًا، ومن همهمات الريح وحفيف الأشجار بكاءً وعويلًا، كل ما يدور حوله يُترجم إلى حزن؛ النهر والمطر والنخل، ولعل حرمانه من دفء الأمومة مبكرًا وراء ذلك التأثير الغريب والطاغي في نظرته وترجمته للأشياء من حوله وهي -أي أمّه- التي جعلته يقول:

هي وجه أمي في الظلام

وصوتها، يتزلّفان مع الرؤى حتى أنام

و هي النخيل أخاف منه إذا ادلهمّ مع الغروب

فاكتظّ بالأشباح تخطف كلّ طفل لا يؤوب

من الدروب

وهي التي جعلته يقول أيضًا:

جلس الغريب، يسرّح البصر المحيّر في الخليج

و يهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج

فقوله «يهد أعمدة الضياء» أمرٌ مطلقٌ للعقل بأن يدور في فضاءات هائلة ويتفكّر في حجم الآهات والزفرات الكامنات في رئتيه المتعبتين.

لقد نال الذروة في المعنى والمبنى أيضًا في اختياره الفعلين (يهدّ، ويصعّد) هذا لأعمدة الضياء، وذاك للنشيج.

رسالة إلى السياب في ذكراه السادسة و الخمسين :

أعلم أنّك الإنسانُ الذي لا يحتاجُ الألمُ دليلًا ليهتديَ إليه، وأعلمُ أنّك الشاعرُ الذي لم تغبْ عنه رؤى الجمال، وأعلم أن الألم كان تصاعديًا مع سنيك القصيرات، وكان الإبداعُ معه تصاعديًا أيضًا ، فلا عجب حينما كانت النهاية قريبة منك، فمن يهمّ بسيره يصل سريعًا.

أعلم أن الثماني والثلاثين سنة كانت كافيةً لتصلَ بها إلى أعلى مرحلة من مراحل السقم

والغربـة والحرمـان، وأعـلم أن المـوت لم يكـن إلا راحـةً عظيمـةً مما كنت تكابـدُ وتجد، وكفيلـةً أيضًا أن تصـل بهـا إلى عـرش العبقريـة الشـعرية.

أعلـم أيضًـا بأنـك كنت إنسـانًا بشـاعر وشـاعرًا بإنسـان ولم تكـن لتكـون بأحدهـما دون الآخـر، ولـن نسـتطيعَ فهمـك شـاعرًا مـا لم نغُـص في أعماقـك إنسـانًا، ويكفيـك فخـرًا أنّ أقرانـك مـن الشـعراء -ممـن عـاصروك وعاشـوا بعـدك بنصف قـرن وأكـثر- لم يتركـوا عُـشْرَ الأثـر الـذي تركَـه فكـرُك وشـاعريتُك حـين مـتّ وأنـت ابـنٌ للفتـوة والشـباب، فذلـك هـو سرّ العبقريـة حـين يحملها الإنسـان، وسرّ الإنسـانية حـين يحملهـا العبقـري.

لكنـي أصْدُقُـكَ القـول بأننـي لم أكـن أدرك يومًـا أننـي سأحسـدك على مـا آل إليـه حالُك، ولم يـدُر في خلـدي أن تتحـوّلَ في مخيلتي إلى إنسـان محظـوظ بعـد كل مـا رأيـتَ مـن عذابـات الحياة.

لا أكتمـك، لقـد كنـتُ أبـكي كلما قـرأت مرثية سـعدي يوسـف لكَ وهـو يـردّد ويقول:

جيكـورُ توقِدُ في المسـاءِ الرطبِ فانوسًـا ولا تَلقى ضياءَهْ

مات اليتيمُ وخلّفَ امرأةً وأيتامًا وراءَهْ

يا رحمة الله التي وسِعَتْ شقاءَهْ

يا أُمَّ مَن لا أُمَّ تُغمِضُ جفنَهُ: كوني رداءَهْ

ولْتمنحي الجسدَ المعذّبَ راحةً، والحلقَ قطرةً

ولْتمسحي بالسِّدْرِ جبهتَهُ، وبالأعشابِ صدرَهْ

هو طفلُكِ المصلوبُ فوقَ سريرِهِ عامًا فعاما

متقيِّحَ الطعناتِ مشلولًا مُضاما

لكنـي أُدرك اليـوم أن حياتـك كانـت فخـرًا وموتـك كان فخـرًا أيضًـا، فـما زال الشـعر بعـدك في وَلَـهٍ وحـزنٍ واندهـاش يعيـش حالـة الفقْـد ويتقبّـل فيـك العـزاء، فقد كنتَ فرقانًـا بين الحزن والحـزن النبيـل، ونقطـةَ اتصـالٍ عظيمـةٍ للشـعر بالإنسـانية.

لقـد أثبـتَّ أن الحيـاة بـلا أمٍّ ظلٌّ ناقـص، وأنها بلا وطـن شـمسٌ قصيرة.

أعلـم أنـك فتحـت مغاليـق الخيـالات لأجـل الحـزن الـذي كان يعتريـك، وأبـواب المجـاز لأجـل الإحاطـة بالألم الـذي كنت تتقلب عليـه، فانفتحت بذلـك كل أبـواب الإدهـاش أمامـك فأدهشـتنا، ثم فتحتهـا للشـعراء مـن بعـدك فكنـت فيهـم المبتكر، وعشـت ولـما تـزل فيهـم الحـادي والرائـد.

لكـن الحـال بعـدك كـما هـو -يـا بـدر- مـا زال العـراق يعيـش الجـوع، وينـثر الغـلال فيـه موسمَ الحصـاد لتشـبع الغربان و الجـراد، وما زال الناس بانتظـار مـن بعـد انتظـار مـن بعـد انتظـار، وكأن الزمـان تـلاشى فلـمْ يبـقَ إلا الانتظـار، ومـا زالـت «جيكـورُ» توقِـد فوانيـسَ بـلا ضياء.

مـا زال «بُويـبُ» متسربلًا ببقايا وشـلٍ للدموع،

وما زالت أشباحُ «منزل الأقنان» تعيش اليتم بعدك، ولمّا تزل شجرةُ السِدر بحاجة لمن يهذب ضفائرها اليابسة.

ما زال فينا الضياعُ والخداعُ والظلامُ والسقام، وما زال أحدنا يردّد في صحوه:

يا نوم بين جوانحي أملٌ... لم «ندرِ» قبلكَ أنه أملُ

ما زلنا واقفين خلف سور من حجار، لا باب فيه لكي «ندقَ» ولا نوافذ في الجدار.

ما زلنا نتحرق انتظارًا واصطبارًا وما زلنا نجهل ما لا نريد وما نريد.

ما زال فينا الجياع والعراة والعبيد، وما زال اليتامى والأرامل والثكالى، وما زلنا نقتلُ الناطورَ على البيدر لنستبدلَه بسارق ونخلق من بناتِه ألف مومس عمياء ثم نتركها بلا فانوس ونبيع الزيت لمن يدفع أكثر.

ما زالت المزاريبُ تنشجُ بعدك من دموع الأمهات يا بدر، وما زال البكاء هو العزاء الأقرب للنساء من كل صديق وأنيس.

لم تبقَ وراءك غابةٌ ولا سَحَر، ولا شرفتان ولا قمر، وقد تيبست أخشابُ الشناشيل وأمست محضَ ركامٍ واقف، وباتت ابنةُ الچلبيّ متسولةً على رصيف المارة، وبات «شباكُ وفيقة» مشرَعًا تتداول دفتيه الريح.

لقد غادرَنا بعدك -يا بدر- الحمدُ والعطاءُ ولم يبق غيرُ الألمِ والرزايا والبلاء.

لم يبق لي بعَد ما تقدّم إلا أن أزفَّ إليك خبرًا سيسعدك كثيرًا، فحين قلتَ:

إن متُّ يا وطني فقبرٌ في مقابرك الكئيبة

أقصى مُناي

صرتَ به الأوفر حظًّا بين آلآف من المشردين فقد فزتَ من العراق بقبرٍ مجاني بين من تحب، وغيرك الآن يدفع آلاف الدولارات ليشتري قبرًا نائيًا في الغربة.







ملف العدد:

(١)

العلامة محيي الدين عبد الحميد

في ذكراه الثامنة والأربعين

عصام الشتري

لمْ يـُدر بِخَلَدي وأنا أعدُّ العدَّة لأكتبَ مقالًا عن جدِّي خالدِ الذِّكرِ: محمَّدِ محيي الدِّينِ عبدِ الحميدِ، أنْ أجِدَ كلَّ هذا المقة والوفاء الهاطل من طلبة العلم في كل عصر لشخص الشيخ الإمام، وقد كنت عزمت أن أدبج مقالًا أذكر فيه بعض ما لا يعرفه العلماء والأدباء عن الشيخ محيي الدين، بفضل صلة القرابة به، وأعلم أشياء لا يعلمها الكثير، لكن ما حداني وساقني للمضي في هذه المقالات: مقال قديم قرأته للواء العراقي «محمود شيت خطاب» عن كيف أن الناس في بلادي لا تحفل كثيرًا بالعلماء قدْر احتفالهم بالفنانين الممثلين، وأنقل لكم نص كلامه من كتابه: «الوسيط في رسالة المسجد العسكرية» يقول:

«أذكر أنني شهدت تشييع جنازة المرحوم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في القاهرة، ومن الأقدار العجيبة أن أحد الفنانين توفي في نفس اليوم الذي مات فيه الشيخ محيي الدين عبد الحميد، وكان سرادقا الرجلين متجاورين، فكان في سرادق الشيخ أقل من عشرة أشخاص، وكان سرادق الفنان يموج بالآلاف.

وكان الشيخ في حياته المباركة من أكبر علماء الدين واللغة، وقد حقق كثيرًا من التراث العربي الإسلامي، وخدم العربية والإسلام خدمة باقية لمدة خمسين عامًا، أما الفنان فقد أفنى هو الآخر خمسين سنة من عمره في إفساد الأخلاق وتشجيع التخنث والانحلال.

أهكذا يجازي العرب والمسلمون مَن يخدم العربية والإسلام خدمة صادقة بالعقوق والإهمال ويكرمون من ازدرى العربية وحطم الخلق الكريم كما يكرم الأبطال والفاتحون؟ أهذه أمة تنشئ الأجيال؟

ولكن الذنب ذنب المسؤولين في الدولة عن الإعلام وعن التخطيط العام للدولة، لأنك تجد للفنانين والمخربين حصة الأسد في الإذاعتين المسموعة والمرئية، وفي المصحف والمجلات: أحاديث صحفية ومقابلات إذاعية وأخبار مستفيضة عن نشاطهم وتحركاتهم، ولا نصيب للعلماء المخلصين إلا كنصيب المتصدق بجزء ضئيل من أمواله على الفقراء، والمحتاجين»...

هذا المقال البديع هو الذي حرّك أشجاني وشجوني في تدبيج عدة مقالات للتحدث عن بعض الجوانب في شخصية الشيخ الإمام الذي كان له الأثر العميق في كل دارسي علوم العربية والقرآن في العصر الحديث... فما من طالب علم أو أستاذ أكاديمي في علوم العربية سواء أكان أكبر أم أصغر من الشيخ إلا والشيخ له فضل عظيم عليه طالما أنه عاصر الشيخ فلقد استفاد ونهل من علمه الغزير الذي أفاض الله به عليه.

وهو من جملة المحققين الذين منحهم الله -عز وجل- ملَكة يتيمة وفريدة لم يعطها السابق واللاحق من جملة المحققين... سبقه العلامة أحمد شاكر وعاصره وتتلمذ على يديه الشيخ عبد السلام هارون ومحمود شاكر، وكذلك تلاميذه في كلية اللغة العربية في الأزهر الشريف والذي كان عميدًا لها مرتين، منهم: محمود الطناحي ومحمد رجب البيومي وسعد ظلام وغيرهم.

أقول: إن العلامة محيي الدين عبد الحميد كان تواقًا لكل فروع التراث العربي والإسلامي، لم يكتف بعلوم العربية التي تخصص فيها، بل حقق في علم الكلام والمنطق والشعر والأدب والسيرة النبوية وتفسير القرآن والعَروض والفرائض والأحوال الشخصية، إضافة إلى علم النحو والصرف، فهو كالنحل يحل ويقع على كل رحيق، فيرتشفه ويصيغه شهدًا مصفى.

إطلالة قصيرة عن نشأته الأولى:

١- ولد الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في قرية كَفر الحمام المتاخمة للزقازيق بمحافظة الشرقية عام (١٣١٨هجرية) = (١٩٠٠ للميلاد)، لعائلة من أصول عربية تنتسب إلى المناذرة بالحيرة، ومن سلالة الملوك، فالشيخ ينحدر نسبه الشريف إلى الملك النعمان بن المنذر بن ماء السماء، فورث العزة والإباء والأنفة، وكانت «كفر الحمام» قديمًا تسمى «نزلة النعمان» نسبة إلى قبيلة الشيخ.

٢- نشأ في كنف والده الشيخ العلامة عبد الحميد إبراهيم المنذري الذي كان شيخًا للمعهد الديني بدمياط ثم شيخًا لمعهد الإسكندرية والذي كان ينافس الأزهر الشريف مكانةً وقتئذٍ، ثم ارتقى دار الإفتاء عندما اختاره الملك أحمد فؤاد لهذا المنصب الرفيع من (١٩٢٠م) حتى (١٩٢٢م) عام وفاة الشيخ الأب.

٣- نشأ الطفل محيي الدين في هذه البيئة العلمية فحفظ القرآن على يد الشيخ محمد سليمان أبو سعدة في كتّاب كفر الحمام وكان ذا نفس طلعة طموح تتوق للعلم النافع وأخذه من مظانه يهطع لمجالسة العلماء الذين يتوافدون على أبيه فظفر بعلم غزير منذ نعومة أظفاره... وكان يفاخر أباه فيقول: «أنا عالم ابن عالم، أما أنت فعالم ابن فلاح»... فيضحك والده ويحبر لذلك.

٤- ثم أن كان ودخل الأزهر وتخرج فيه عام (١٩٢٦م) في أول دفعة لكلية اللغة العربية بنظامها الجديد وكان الطالب الأول على دفعته... تدرج في العمل الوظيفي من مدرس بالمعاهد الأزهرية إلى شيخ المعهد الديني بالزقازيق وكان من تلامذته الشيخ محمد متولي الشعراوي والشاعر طاهر أبو فاشا... ثم مدرسًا بكلية اللغة العربية وأصول الدين ثم وكيلًا للكليّتين ثم عميدًا لكلية اللغة العربية مرتين... ولولا سمة من سمات الكرامة عنده لَتقلّد شياخة الأزهر والذي رُشح لها أكثر من مرة ولم يشرف به المنصب.

٥- جاءت مؤلفات الشيخ وشروحه وتعليقاته آيةً من آيات الإتقان والدقة فلم يحظَ مؤلف محقق مثلما حظيت تحقيقاته بحسن القبول من طلبة العلم... فالباحثون يبدؤون قراءة تحقيقاته من أسفل قبل المتن الأعلى، وذلك لطلاوة أسلوب الشيخ الذي منحه الله -عز وجل- ملَكة التحصيل والتأصيل والتوصيل فكان هذا الطود الشامخ فريدًا من نوعه فهو يحقق التحقيق للمتن الأصلي.. ينقح ويصحح فكتب الله لكتبه الذيوع والانتشار بين أهل العلم النافع.

٦- كان الشيخ عالمًا من علماء السنة النبوية فقد كان رئيسًا للجنة السنة النبوية بالأزهر وكذلك رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.

٧- وكما أوحى الله إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون لارتشاف الضرب (العسل المصطفى) كذلك كان العلامة محيي الدين فهو في الفقه فقيه لا يُبارى حنفي المذهب ويحقق كتاب «نور الإيضاح» على المذهب الشافعي... كان من

علماء اللغة فحقق «مختار الصحاح» ومن علماء الكلام فحقق «مقالات الإسلاميين» للأشعري وكان من علماء المنطق فحقق «السلم» للأخضري... ألَّف كتابًا في علم الفرائض وحقق «العمدة» لابن رشيق وهو كتاب جامع خزانة الشعراء... حقق في علم الأنساب وفي التاريخ «وفيات الأعيان»... وحقق «الموازنة بين المتنبي وخصومه» وأنصف المتنبي الذي كان من محبيه وحقق «الموازنة بين الطائيين الكبيرين».

٨- كان موسوعة شعرية -وإن لم يكتب الشعر قط- تمشي بها قدمان، وكيف لا وهو ما أن يورَد الشاهد الشعري في بيت منفرد يَذكر البيت الذي قبله والذي بعده وينسبه إلى قائله ثم يقوم بإعراب الأبيات بطريقة سحرية تملك شغاف القلوب والأفئدة.

٩- حقق جلَّ كتب النحو والصرف وهو أول من سهل تبويب النحو بعد أن كان النحو هائمًا في شعاب كتب المتقدمين.

١٠- حقق في اللغة والأدب: المثل السائر، وأدب الكاتب، ومقامات بديع الزمان. وكتبَ عن شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة.

١١- كان التواضع ديدنه والحصافة فهمه والفصاحة طريقته الفصحى البعيدة عن التقعر فهو وإن كان يستهويه اللفظ الرصين إنما كان المعنى هو شاغله الأول كيف يصل كلامه إلى المتلقي في جمل بكيئة رصينة.

١٢- ذلك هو الشيخ العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد، والذي توفي في يوم ٢٨ من ديسمبر ١٩٧٢م، فسلام على روحه في الأولين وسلام على روحه في الآخرين وأنزل الله عليه شآبيب الرحمات في الغدوات والروحات وجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فرطه على الحوض الشريف... اللهم آمين.

بعض ما قيل عنه:

- **العلامة عبد السلام هارون:** «يكفيه فخرًا في النحو ويكفي النحو فخرًا به أنه عالج معظم كتبه المتداولة لتيسير دراستها وتذليل القراءة والبحث فيها بدءًا بالآجرومية و انتهاءً بشرح الأشموني للألفية».
- **الدكتور سعد ظلام:** «يشعر الجالس أمامه بأنه أمام عالم من علماء القرن الرابع الهجري».
- **الأستاذ عماد غزير:** «ما زال الداريون (الدراعمة) يفاخروننا نحن الأزهريين بأعلام محققيهم فنفاخرهم بالشيخ محيي الدين عبد الحميد فنفخرهم».
- **العلامة محمد رجب البيومي:** «ماذا عسى أن يقول المنصف في مجهود مجمع كامل قام

بـه فرد واحد فأي زمن اتسـع؟ وأي نوم سـلب؟ وأي راحـة قـضى عليهـا حتى وقـف الرجل على صرحـه العلمـي الشـامخ ليقـول للنـاس بلسـان الحـال: هـاؤم اقـرؤوا كتابيـه وقـد قـرأ الناس فوجـدوا الخـير الهاطل والنفـع الجزيل».

وأقول في ذكـرى وفاتـه الثامنـة والأربعـين:

أي نحـو وصرف تضعضـع وأي بحـر خضـم سـاخ وأي جبـل أشـم تصـدع وأي نبـت مزهـر صـوح وأي ضيغـم هصـور كل وأي وأي وأي.

مما لا يعلمه الكثير عن الشيخ:

١- أن الشيخ له تفسير لجزء عم (مفقود).

٢- أن للشـيخ تحقيقًـا عـلى تفسـير الزمخشري (مفقـود).

٣- أن الشـيخ كان رئيسًـا للجنـة الفتـوى بالأزهـر الشريـف ورشـح أكـثر من مرة لمشـيخة الأزهر ولم يتحقـق ذلـك لسـمة مـن سـمات الكرامـة عنده.

٤- أن معظـم محققـي الـتراث تتلمـذوا عـلى يديـه سـواء بالمشـافهة أو عـن طريـق كتبـه أمثـال: عبد السـلام هارون ومحمود شـاكر والطناحي ورجـب البيومـي وسـعد ظـلام وغيرهم.

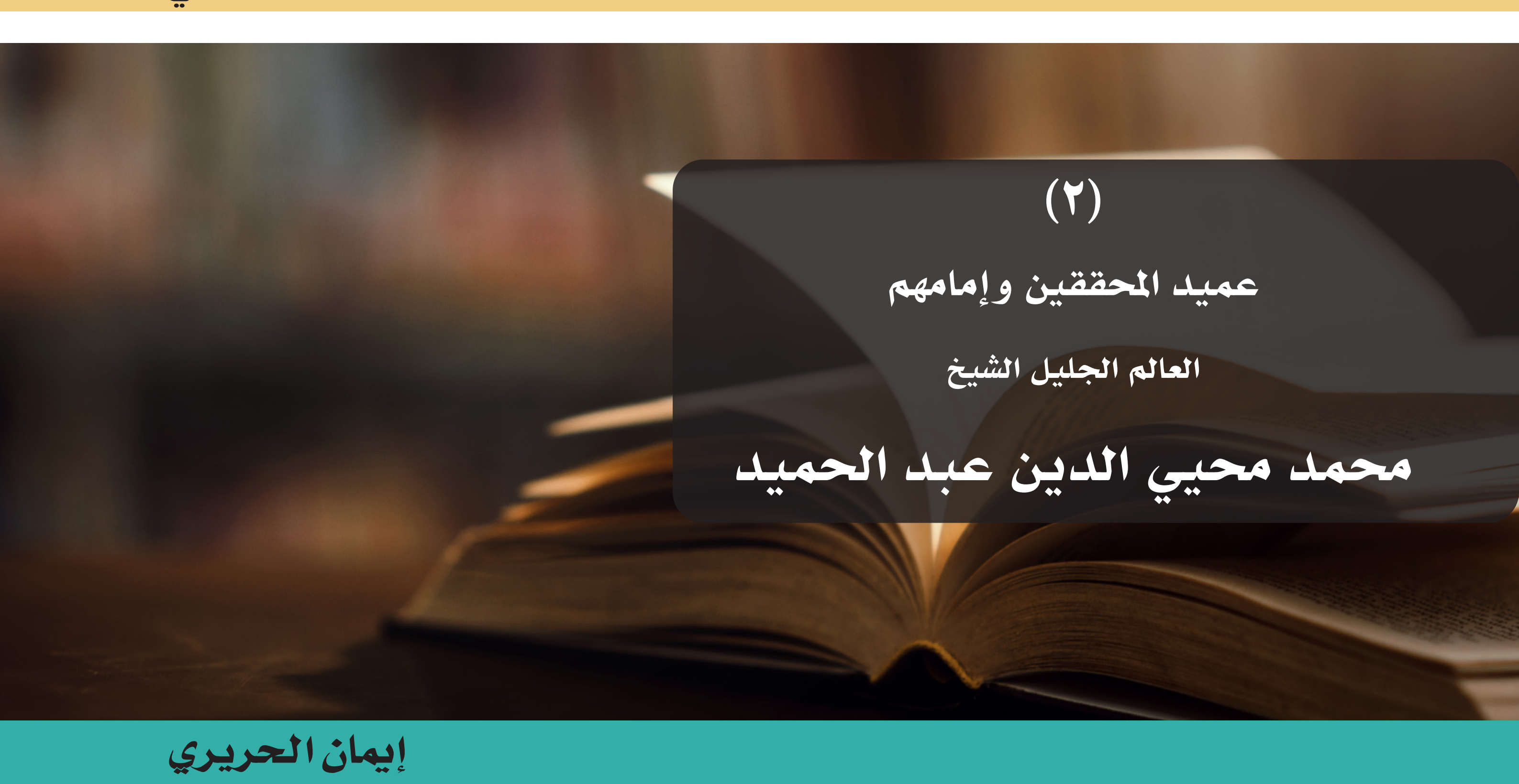
٥- أن الشـيخ محمـد متـولي الشـعراوي كان تميذه في معهـد الزقازيـق الدينـي ثـم تلميـذا له في كليـة اللغـة العربية.

٦- أن العلامـة عبـد السـلام هـارون شـقيق زوجـة الشـيخ محيـي الديـن وخـال أولاده.

٧- أن الشـيخ محيـي الديـن كان أحـد مؤسـسي جماعـة أنصـار السـنة عـام (١٩٢٦م) مـع الشـيخ محمـد حامـد الفقـي والشـيخ محمـد خليل هـراس.







(٢)

عميد المحققين وإمامهم

العالم الجليل الشيخ

محمد محيي الدين عبد الحميد

إيمان الحريري

كان من أساتذة الأزهر البارزين الذين استقرت على أيديهم التقاليد الأكاديمية في التأليف والتحقيق والبحث العلمي والتدريس الجامعي، انتقلت إليه راية التحقيق من الشيخ أحمد شاكر، ونقلها من بعده إلى شيخ المحققين عبد السلام هارون.

تولى الشيخ عبد الحميد تحقيق الكثير من المؤلفات النحوية التي لم تر النور حقيقة إلا على يديه؛ ومنها مؤلفات ابن مالك وابن هشام وابن عقيل والسعد التفتازاني والأشموني، وقد قيل إنه كان إمامًا في القراءة، وإمامًا في النحو، وإمامًا في الحساب، وإمامًا في الحديث، مع إتقانه كثيرًا من العلوم الأخرى كعلم الكلام والبلاغة. وإننا إذ ذكرنا بعض مآثره رحمه الله لَعاجزون عن أن نحيط بكل فضائله، وعن أن نفيه بعض بعض حقه علينا، ولا يسعنا إلا أن نقول: جعل الله ما قدمت للأمة وما تركت لنا من إرث ينير الدروب لكل طالب علم في ميزان حسنا تك.

وأهدي إلى الشيخ العلامة هذه الأبيات المتواضعة كعرفان على ما قدم لنا:

يا محييَ الدِّين أنتَ العالمُ العَلَمُ
بمثلِ علمك تُهدى الناسُ والأممُ

كنتَ الأمينَ على إرث الرَّسول لنا
ما قصَّرتْ بك في غاياتها الهِممُ

قضيتَ دهرَك تحمي الدِّينَ في لغة
فيها البيانُ كعقد الدُّرِّ ينتظمُ

وما توانيْتَ في التَّبليغ مُؤتمَنًا
لشرعة الحقِّ حتى انجابت الظُّلَمُ

فاللهَ أسألُ أن يجزيك مغفرةً
وأن تنالكَ في جناتهِ النِّعَمُ





(٣)
رَيحانَةُ الأَزهرِ

د. باسم بلام

الحمـد للـه، وبَعـد: تأَخَّـرَ الـرَّد، وامتـدَّ حبـلُ الوَعـد، وليـس يَحجُـزُني عـن الموافاةِ بالإنجـازِ إلَّا مـا يَعلَـمُ العالمُ والجاهلُ مـن أَثَرِ مُشَـتِّتَةِ الأذهانِ، ومبـدِّدَةِ جُمَـعِ الأَفكارِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ طُولَ حَيَاتِهِ
مُعَنًّى بِأَمْرٍ لَايَزَالُ يُعَالِجُهْ
تَرَاهُ كَدُودِ القَزِّ يَنْسُجُ دَائِبًا
وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسْطَ مَا هُوَ نَاسِجُهْ

مـمَّا أَوْرَثَ يَدَيَّ احتباسًـا، فخَشـيتُ أَنْ لا أَتوَّفَرَ علـى شَرطِ الإحسـانِ ممَّا تَسـتَدعِيهِ أصـولُ الكتابة الأدبيَّـة، الَّتـي لا تُعطِـي مـن بعضهـا إلَّا بمقـدارِ إيثـارِكَ إيَّاهَـا بجملَـةِ مـا فيـكَ، وإقبالِـكَ عليهـا بكُلِّيَّتِكَ .

ولكـنَّ طلَبًـا فكرتُـهُ الشَّـيخُ محمَّد محيـي الدِّين عبـد الحميـد، ومُتَطلِّبُـوهُ: حفيـدُ الشَّـيخِ الأسـتاذُ عصـام الشَّـتري، والأديبـان المفتَنَّـانِ محمَّد بركات وطاهـر العلـواني، قَمـينٌ بـأَنْ يُلَبَّـى موضوعًـا وداعيًـا.

إنَّ الحديـَث عـن زَهـرةِ الأَزهَـرِ وريحانَتِـهِ العلَّامـة شـيخ التَّحقيـق والمحقِّقـينَ محمَّـد محيـي الدِّيـن عبـد الحميـد (١٩٠٠م-١٩٧٢م) لَصَعـبٌ أَيَّمَا صعوبَـةٍ! فـما وَجَّهتُ قلمـي إلى فكـرةٍ مـمَّا يَعْلَـقُ بالشَّـيخِ الإمـامِ إلَّا ووَجدْتُـهُ شَـديدَ النِّفـارِ، عـصيَّ القَـرارِ، كثـيرَ الخـداعِ، قـويَّ النِّـزاعِ، يَجفُـونِي وَفَـاؤُهُ، ويَفِـي لي جَفَـاؤُهُ.

علـى أَنَّنـي حُبًّا للشَّـيخِ الَّـذي رُبِّيـتُ علـى كُتُبِهِ، أَرْغَمْـتُ جُمُـوحَ قَلَمـي علـى الإسـلَاسِ، فانْقَـادَ لِجَامُـهُ، وانْبَـتَّ إحجامُـهُ، فحَمِدْتُ اللـه على النِّعمةِ أَنْ أَوْزَعَنِـي شُـكْرَ جميلِ شـيخِ المحقِّقـينَ، ولو بهذه

القالَـةِ القليلَـةِ الألفـاظِ، القـاصرَةِ الإغْـرَاضِ.

إنَّـهُ مـا احْتَـازَ رجـلٌ في العربيَّـةِ الحديثَـةِ مـن ذيـوعِ الأعمالِ، ومَسـيرِ الكُتُبِ مشرِّقَـةً ومغرِّبَةً في بـلادِ العروبـةِ المتراحِـب، مثـلَ الَّـذي احْتَـازَهُ شـيخُ التَّحقيـقِ علـى التَّحقيـقِ: العلّامـة محمّـد محيـي الدِّيـن عبـد الحميـد؛ فما أظُـنُّ أنَّ مكتبـةَ عالمٍ أو طالبِ علم من المشتغلين بالعربيَّةِ العالية استقلالًا أو تَبَعًا، تَخلُـو من طائفة من كُتُبِ الأسـتاذِ الجليل، ففضلُـهُ عليهم كفضلِ الشَّـمسِ على سـائرِ الكواكبِ والأقـمارِ، إذا طلَعَـتْ ليسَ يَظهرُ من الوجودِ سـوى سـبحاتِ نورهـا الَّتـي تُـضيء الآفـاقَ المنظـورَةَ وما وراءَ المنظورَةِ.

إنْ أنْـسَ فـما إخَالُنـي أنْسَى أيَّامًا جالسـتُ فيها أحبَّـةً علـى تـدارسِ كتـبِ الشَّـيخِ، خاصَّـةً (التُّحفَـة السَّـنيَّة) الَّتـي كانَ مدخلـي إلى النَّحوِ علـى هَدْيِهَا، (وقَطـر النَّـدَى) الَّـذي رَوَى ببَركَتِـهِ غُلَّتـي، وأبَلَّتْ ببَرْدِ نَـدَاهُ علَّتـي، فاهْتديـتُ إلى (شـذور الذَّهب) اللَّمَّاعـة، واغتنيـتُ بأعـلاقِ (المغنـي) النَّفَّاعة.

لقـد كان محمَّـد محيـي الدِّيـن عبـد الحميـد شـيخًا في العربيَّة وآدابها، لسـانُ الضَّادِ استقَرَّ في وجدانِـهِ بجلالِـه، وتَبَرَّجَ في خيالِهِ بحسـنِه وجمالِهِ، ومـن فكـرِهِ تمكَّـنَ، وبيَرَاعتِـهِ اسـتَبَدَّ واسـتَحْكَمَ، فصـارَ الشَّـيخُ لا يَرَى إلَّا بإنسـانِ عينـه، ولا يَتذوَّقُ إلَّا بطيـبِ لسـانِه، ولا يَسـمعُ إلَّا بحديـدِ آذانِـه، ولا يَنْشَـقُ إلَّا بشَـمَمِ أنفِـهِ ورُوحِـهِ، فَيَقيـسُ مـن الحياة كُلَّ مـا فيهـا بكُلِّ مـا فيـه، ويُرجِـعُ مـن مسـائِلِهَا إلى أصولِـه وقواعِـدِهِ، فَيَـزِنُ الأقـوالَ والأفعـالَ، والحـركاتِ والسَّـكَناتِ، بقسطاسِـهِ العـادلِ الَّذي لا يَشـولُ، فـإذا الضَّـادُ حياتُـهُ، ومـا حياتُـهُ إلَّا ضـادٌ فارعـةٌ فينانَةٌ.

يَقـولُ الشَّـيخُ بلسـانِ قلمِـه: «وإنِّي منـذ عَلِقتُ أمْـرَ الحيـاةِ شـديدُ الشَّـغَفِ بالعربيَّـة، والحـرص علـى اسـتخراج كنوزها، واسـتنباط أسرارهـا: أَصِلُ النَّهـارَ باللَّيـل باحثًـا ومنقِّبًـا، وأُديمُ السَّـهَرَ، وأُطيلُ اليقظَـةَ مراجعًـا ومعـاودًا، لا يَعتَرينـي في ذلـكَ مَـلالٌ، ولا يُدرِكُنـي ضَجَـرٌ، ولا تَخطـرُ السَّـآمَةُ لي ببـالٍ...» (مقدِّمـة تحقيقـه لـ: جواهر الألفـاظ لـ: قدامـة بـن جعفـرٍ البغـداديِّ، ص ٤٠).

كَانَ بَحْرًا مِنَ المَعَارِفِ زَخًّا
رًا، وَذُخْرًا مِنَ الفُنُونِ جَسِيمَا
رَاضَ فُصْحَى اللُّغَى فَأُوتِيَ فِيهَا
مَنْطِقًا سَاحِرًا، وَذَوْقًا سَلِيمَا
رَافَقَ الكُتْبَ وَالمَكَاتِبَ دَهْرًا
وَتَقَصَّى أَعْلَامَهَا تَعْمِيمَا
فَبَدَا عَصْرُهَا القَدِيمُ جَدِيدًا
وَبَدَا عَصْرُهُ الجَدِيدُ قَدِيمَا

كانَ للشَّـيخِ طريقَتُـهُ الفريـدَةُ في تَيسـيرِ كُتُـبِ الأَسـلافِ بنهـجِ خطَّـةٍ علَّمَهَـا بميسَـمِه، خلاصَـةُ ما بُنِيَـتْ عليـه «تَقديـمُ النَّـصِّ المحقَّـقِ علـى الوجـهِ



الَّـذي تَغَيَّاهُ صاحبُهُ»، دونَ تقحُّـم بَهَائِه بالتَّعليقات السَّـمِجَة البـاردَة، ولا المبالغَـة في الاسـتكثارِ مـن الفهـارسِ الَّتـي لا تَخـدُمُ المـتنَ المحقَّق.

كيـفَ لي أَنْ أَكتُـبَ عـن رجلٍ مجمـوعُ مـا أَلَّفَهُ وحقَّقَهُ قـارَبَ المئةَ كتابٍ من أصولِ التُّراثِ الوازنَة حِسًّا ومعنًـى، ففـي النَّحـو أَخـرجَ: قطـر النَّـدى، والشُّـذور، والمغنـي، وأوضح المسـالك، وشرحَي ابن عقيل والأشـموني عـلى الألفيَّة، والإنصـاف،... وفي الأَدبِ أَحْيَـى: أدب الكاتـب، والمثـل السَّـائر، ويتيمة الدَّهـر، والعمـدة، وزهـر الآداب، والموازنة، وديوان ابـن أبي ربيعـة، وديـوان الحماسـة، وأبـو الطَّيِّـب مـا لـه ومـا عليـه، ونفـح الطِّيـب،... وأَخـرجَ غـيرَ هـذه في: التَّراجـم، والتَّاريـخ، والفقـه وأصولـه، والعقائـد، والحديـث، والتَّفسـير... مـمَّا تَستثقِلُ تعـدادَهُ أَقلامُنَـا الكليلَةُ.

وأَكادُ أَجـزمُ -والعـذرُ صاحِبـي- أَنَّ كُلَّ مـن قَرَأَ مقـالي هـذا لم يَقـرأْ تحقيقـاتِ الرَّجـلِ وتآليفَـهُ كاملـةً، فكيـفَ الظَّـنُّ بمـن عالَـجَ نصوصَهَـا حرفًـا حرفًـا، وقابَـلَ نُسَـخَهَا الخطِّيَّـةَ كلمـةً كلمةً، وسـدَّدَ مقاصدَهَـا، وأَوْضَـحَ شـواهدَهَا، وضَبَـطَ مُشـكلَهَا، وفسَّـرَ مُقفَلَهَـا، ورَمَّـمَ صَدْعَهَـا، وأَلْحَـمَ فَلْعَهَـا، حتَّـى أعلَـى بناءَهَـا، وتَمَّمَ إنشـاءَهَا؛ فكأَنَّمَـا ناجَاهُ سـيبويه، وسـارَّهُ ابـنُ قتيبـةَ، وناصَبَـهُ ابـنُ هشـامٍ، أو كأَنَّـهُ خالَـلَ الهمـذانيَّ، وآلَـفَ ابـنَ رشـيقٍ، ونـادَمَ المقـريَّ؛ ودونَكَهَـا مُقدِّمات كُتُبِـهِ الملتمعات، فقـد سـطَّرَتْهَا قريحـةٌ عاشَـتْ في المـاضي أكـثرَ مـن عيشـها في حـاضرٍ أَعْجَـمَ أَغْتَـمَ، فجـاءَ بيانُـهُ عربيًّـا، وفكـرُهُ يَعربيًّـا، ولا غَـرْوَ أَنْ «كُتِبَـتْ بَدَائِعُهُ عـلى الأَحـداقِ». وصـدَقَ شـوقي لمَّا شـمَخَ (الأزهر الشَّريـف) بشـموخ (رائيَّتِـه) الخالـدة:

قُمْ في فَمِ الدُّنْيَا وَحَيِّ الأَزْهَرَا
وَانْثُرْ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الجَوْهَرَا
وَاجْعَلْ مَكَانَ الدُّرِّ إنْ فَصَّلْتَهُ
في مَدْحِه خَرَزَ السَّمَاءِ النَّيِّرَا
وَاخْشَعْ مَلِيًّا وَاقْضِ حَقَّ أَئِمَّةٍ
طَلَعُوا به زُهْرًا وَمَاجُوا أَبْحُرَا
كَانُوا أَجَلَّ مِنَ المُلُوكِ جَلَالَةً
وَأَعَزَّ سُلْطَانًا وَأَفْخَمَ مَظْهَرَا

وإنَّـهُ قـد ضـاقَ المرتكَـضُ، وحَـرِجَ المجـالُ، وإلَّا فـإنَّ الشَّـيخَ حقيـقٌ بـأَنْ تُـدَوَّنَ فيـه البحـوثُ الجليلَـةُ، والدِّراسـاتُ الأَصيلـةُ، ولكنَّـهُ جهـدُ المُقِـلِّ، مشـفوعًا بأعـذارٍ كثـارٍ أَوَّلُهَـا وأَشَـقُّهَا التَّدريسُ الَّـذي اسْـتَنْزَفَ منِّـي شـهوةَ الكتابـةِ، يَسَّـرَ الله لي عَـوْدًا محمـودًا إليهـا.

فاللَّهُـمَّ ارْحَـمِ الشَّـيْخَ كِفـاءَ مـا خـدَمَ دينَـكَ ولسـانَ كتابِـكَ وشرعِـكَ، فإنَّـهُ لا يكفـي جـزاءَهُ إلَّا جـزاؤُكَ، وأَحِلَّـهُ مـن الجنـانِ أعاليَهَـا، ومـن الفراديـسِ بحبوحَتَهَـا.



(٢)

فخر الأزهر

محمد محيي الدين عبد الحميد

محمد بركات

إن السابق سابق وهو المقرَّب، والتالي تالٍ وإن شأى وتغلّب، ولقد دبَّجت يراعة الصديق البليغ، والباقعة النابغة طاهر العلواني، مقالة وجهّها إليّ وإلى صديقنا الدكتور البحاثة الأديب باسم بلام، فضرب أعزه الله عصفورين بحجر، وكلفني وإياه الرد عليها بمثلها ولعمري لَإن كان لصاحبها مِثلٌ إذن لكان لها من المقالات مِثلٌ، وإني لأنشد مع المتنبي قوله:

تقولين ما في الناس مثلك عاشقٌ
جِدِي مثل من أحببتُه تجدي مثلي

فطاهر العلواني رجل ضَرَبت حوله البلاغة بسور من المهابة، ويخلبنا حرفه خلبًا وإن قلنا: (لا خلابة)، فكأنما الحروف معه حِراب في يدي أُسْوار، يرمي بها عُون المعاني والأبكار، فما لي ورجل تَحبِس حين قراءته أهلُ «الفيس» أنفاسَها، وتؤمُّه الحروف من كل معجم عميق لتقضي تفثها، وحسبك علمًا بنفسية رجل يجري في مضمار وهو يعلم أنه لا شك مهزوم، فليس الإمام -في أي فن كان- كمن هو مأموم، وكيف لي أن أخوض وراءه لجج البحار، وقد رست بواخره في أمان بعد أن سجر فيها النار، وأنا محاط من أمامي ومن خلفي بجبلين راسخين: فأمامي العلواني ومن ورائي الباسم، وأنا بينهما كحبة بين رحوين، لا أدري من أين المجيء ولا المذهب أين؟ وأين حروفي العجائز على المناسئ متوكئة، من حروفهما الشواب (الباسمات) (الطاهرات) المتوضئة؟ فأنا بين أمرين أحلاهما مرّ، فإن انسحبت قالوا: عجز وتقهقر، وإن رددت قالوا: جاوز قدره وتهور، ولولا أنه طلب



أن أقول في عَلَمٍ من أحبّ الأعلام إليّ هذه المقالة، لما ترددت لحظة في طلب الإقالة، ولكنّ للشيخ محيي الدين في عنقي (مفردات) من المنن جسيمة لا يحدّها كتاب، و(جُمَل) من الفضل تجلّ عن الإعراب، فقد فصل بين مبتدئي وخبري كجملة الاعتراض، ووجه نحوي نحوَ النحو فجعلني من أولي الألباب، فلقد كان أترابي في الثانوية الأزهرية يقرؤون كتاب «شرح ابن عقيل» من أعلاه، وأما أنا فكنت أقرؤه من أدناه حبًّا في حاشية الشيخ محيي الدين، فقد ذلل لي الألفية، وجعلها كالفتاة البهية، فتارة يعرب الأبيات إعرابًا، فتصير ثيبات بعدما كانت عربًا أترابًا، وأخرى يشرح معاني الشواهد فترى شهدًا مذابًا، وثالثة يسرد سيرة حياة الشاعر فأتمنى أن لو كنت سيل قلمه، ونتاج قريحته، ومزاج عقله وعلمه، ولم يكن رحمه الله يكتفي بالإضاءة السريعة واللمحة الخاطفة، بل كان يصنع مع الكتاب كتابًا، فتكون مع المتن كمَن أصاب أكلا، ومع الحاشية كمن وجد شرابًا، فإن اعترضت حلقك لقمة، أسغتها بالشراب، فلا يصلح أحدهما بدون الآخر.

وهو رحمه الله متعدد الفنون والأفانين، كحديقة حوت من كل الزهور والرياحين، وهو عالم موسوعي بما تحمله الكلمة من معنى، فله في البحث والمناظرة كتاب، وفي الفقه وأصوله، والتفسير، والسنة وشروحها، والتاريخ الإسلامي، والشريعة الإسلامية، له في كل ذلك كتب يُرجع إليها، ويعوَّل في الاختلاف عليها، وله شروح في الشعر، ولقد سد ثلمة كبيرة بشرحه ديوانًا من أهم دواوين الشعر العربي، وهو ديوان الشاعر المدلل عمر بن أبي ربيعة، فكان بستان شرح الشعر وربيعه، وقد تجلى فيه فهمه الثاقب، وعلمه بالطبيعة العربية وإحاطته بها من كل جا نب.

لقد كان رحمه الله -كما قيل- جامعة تسعى على قدمين، فما من أحد تعلق بالنحو إلا وللشيخ في قلبه علقة، ولقد أتى حين على الأزهر وتحقيقات الشيخ تملأ مناهجه.

وإن أولى الناس لعمري بالتبجيل، من يربون الناشئة بالعلم جيلا بعد جيل، أولئك هم محيو الأمم، كما تحيا بعد موتها الرمم، ورافعو في زمن الضعف الهمم، تعب الزمان منهم وما أتعبهم، وأعجب الأمور أن الزمن لا يخلد إلا مناوئيه، ولا يطمس إلا ذكر من جارَوْه وتماهوا فيه .

فرحم الله الشيخ رحمة واسعة، وجعل الجنة مثواه ومستقره، اللهم آمين.





(٥)
الشيخ الإمام

طاهر العلواني

كتبتُ اليومَ إلى الأستاذَين الأديبَين محمد بركات، و باسم بلام، باعثًا على التحريكِ والاستنهاضِ أن يمسكا بِعصَمِ المعاني، وهما في ناصيةِ القومِ وسنامِهم، تَوفَّى لهما نصيبُهما من الفصاحةِ، وتوفَّرَ عليهما حظُّهما من الإصابةِ، بألفاظٍ موزونة معدَّلةٍ، ومعانٍ مقسومة مهذَّبةٍ، على حُسن تأليف وسياسة، وترتيبٍ ورياضة، أن ينظرا فيما لو استطعتُ لأنشبتُه في صخرةٍ، أو نقشتُه في عُلقةِ فؤادي، أو أودعتُه في سوس نفسي، على أن تكونا لي عند معتلَج النقا؛ فذاك أثبتُ لحسنِه وأرسخُ لجوهرِه، ولستُ أشكُّ في أنّكما أوقى في انتقاء المعنى، وأحصنُ في تخيُّر اللفظِ، وأبهى في تأليفه، وأهيأ لتهذيبِه، ممّن لا عنايةَ له بمحاسنِ الكلِم وجواهرِه، وملَحه ونوادرِه، وممَّن يعلو بيانُه مرّة ويسفلُ، فمُعوَجٌّ منه ومستقيمٌ، وزائفٌ وسليمٌ.

لم يزلِ التدوينُ أنبلَ ما تُحفظُ به المآثرُ، وأشرفَ ما تُحبَسُ فيه المفاخرُ؛ به حُفظَ القرآن وبقي التاريخُ، حتى ترادفتِ الآياتُ والحِكم، وتواترتِ العجائبُ والعِبر، وإنما انبسط التفاضلُ وعظُمَ التفاوتُ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدٍ، من أجلِ ما ترى عليه الناسَ بين آخذٍ للأمرِ حفلتَه مستبِدًّا به، حتى صافحتْه أيدي الفصاحة، وشافهه لسان البراعة، وبين مأخوذٍ عن البيان بالأُسرِ والحُصْرِ، لا تجد أضعفَ منه عقلًا، أو أتمَّ رقاعةً في زعم الاستفذاذِ بالمزيّة والفضلِ، فذاك رفعَه السبقُ، واحتمالُ ما يشقّ، وهذا قصّر به التأخر، أحبّ أم كره.



ولقد كان الشيخُ الإمامُ محمد محي الدين عبد الحميد -رحمه الله- من أعذب الناس لفظًا، وأوضحهم طريقةً، وأحكمهم بنيةً، عالمًا بنظائرِ الكلام وأشكالِ المعاني، على وثاقةٍ في الرأي وتصرّفٍ في الفضل، نزَر العلومَ تقصِّيًا واستيعابًا حتى أُشرِعتْ له، فما باينَه فيها أحدٌ إلا بان عليه، ولا شادّه إلا غلبَه، وهذا صنيعُ من تنجَّزَ للعلمِ مع لزوم القصد وترك الانثناء، كأنما أَرسل الألفاظَ في طلب المعاني، فصار ردفًا لها في أمرها، وشركَها في سلطانها على البلاغة. ومَن طالَع مقدماتِه للكتبِ، فضلًا عن تحقيقاتهِ الشريفة، علمَ صدقَ ما أقولُ.

كادَ هذا الإمامُ الجليلُ يكافئُ الأكْفاءَ من القدماءِ، بما أنعم الله علَيه من لَطيف العناية وجزيل النظر، بعلم دقّ جليلُه، وبعُد خطْرُه، أنفذَه في كتبِه إنفاذَ السِّنان، على عدالتِه ونُبلِه، وتوقّيه وورعِه، فكان ذاك أعقدَ في الإيضاح، وأوكدَ للاحتجاج، وأذهبَ في الإغراء، وأمضى في التحريض، فانقطعَ إلى دواوينه قبصُ الرمل، وقد بلغت كلَّ ما بلغَه ظلفٌ أو حافرٌ، حتى قصدَ الناسُ إلى مجالستِه، ورغبوا في مساجلتِه.

ولا يزالُ خيرُه مذخورًا لعقبِه ما مرَّ الفتيان، ونفعُه ماضيًا في الخلق ما تعاقبَ الملوان، إلا عندَ مَن قنَّعه اللهُ بالخزي، وغَبيت عليه الجذعةُ في عينِه، أو مَن سعى إلى العلم لا لحاجة، وسار في فجاجِه لا لبُغية، وهذان معدودان في الشواذّ، وليس للشاذّ قياسٌ.





(٦)
فخر المحققين وشيخ شيوخ اللغة

عبد العزيز أبو زيد

كلفني سيدي الأستاذ عصام الشتري كتابة كلمة عن جده فخر المحققين وشيخ شيوخ اللغة العلامة محمد محي الدين عبد الحميد -طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه-، والله يعلم أنني أشرف ويعلو قدري إذا تكلمت عن الشيخ، فهو أشهر من الشمس في ضحاها، فكل من جاء بعده عيال على كتبه وتحقيقاته في شتى العلوم، فقد وهب عمره وأفناه في إخراج كتب التراث في حلة قشيبة خالية من التصحيفات والتحريفات ناصحًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وممهدًا الطريق لطلبة العلم الشريف، واضعًا أشهر كتب التراث على طرف الثمام، ومزينًا إياها بتعليقات نادرة توضح ما أغلق من معانيها، وتكمل ما نقص من مبانيها، وتسند الأقوال لقائليها، وتصوب ما فرط من أقلام مؤلفيها، مع تواضع جم، وحب لطلبة العلم، معرضًا عن أهل الذم.

وإنك لو طالعت قائمة ما حققه في عمره المبارك لتبين لك قدر الرجل الذي لا يطعن فيه إلا أحد رجلين: صاحب غُمر جاهل، أو ذي غِمر متجاهل، وكلاهما عليه لا يعول، وكلامه يطوى ولا ينقَل.

وأستغفر الله أن قصرت في كلمتي، فوالله إن الرهبة قد ملأت قلبي، وألجمت لساني وقلمي، واللهَ أسأل أن يجمعني به في الجنان، لأقبل رأسه على ما بذله لخدمة أمتنا ولغتنا وديننا.





(٧)
الشيخ الجليل

د. منيب ربيع

دعاني أخي الفاضل الكريم الأستاذ عصام الشتري إلى كتابة كلمة عن الشيخ الجليل محمد محيي الدين عبد الحميد في ذكرى وفاته، والحديث عن الشيخ الجليل حديث محبب إلى النفس؛ لما فيه من طلب نزول الرحمة، فقد قال الثوري رحمه الله تعالى : «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»، وإن لم يكن أهل العلم الذين أخلصوا في طلبه وبذلوا الغالي والنفيس في نشره مِن الصالحين فمَن يكون؟ كما أن في الحديث عن الشيخ -رحمه الله- إقرارًا بفضله واعترافًا بجميل صنعه؛ إذ أحسن إلى طلاب العربية أيما إحسان بما أخرج من كتب وشرَح من مصنفات وأعرَب من شواهد وتمَّم من مباحث؛ فيسَّر لطلاب العلم ما كان عليهم عسيرًا، وقرَّب إلى عقولهم ما كان بعيدًا، فلا يستطيع واحد من أبناء هذا الجيل ممَّن درَسوا النحو أو درَّسوه أن ينكر فضل الشيخ الجليل، فمِنْ كُتبِ هذا الرجل الفذ تعلمنا، وبعلمه الغزير أكلنا، إي وربي، إننا -نحن معاشر معلمي العربية- نأكل بعلم هذا الرجل، فمنا من يذكر ذلك محسنا في ذكره، ومنا من ينساه مسيئًا في نسيانه.

وقد حاولت في هذه الكلمة الموجزة أن أتلمس شيئًا من صفات الرجل الكبير، وأول ما يمكن تلمسه من صفاته إخلاصه النادر، وكأنه كان يصف نفسه حين قال عن ابن هشامٍ الأنصاري : «ولابن هشام مصنفات كثيرة كلها نافع مفيد، تلوح منها أمارات التحقيق... وتطالعك من روحه علائم الإخلاص»، فأمارات التحقيق وعلائم

الإخلاص تلوح من مؤلفات الشيخ الجليل رضي الله عنه، وترى ذلك رأي العين في قوله في مقدمة شرح ابن عقيل: «وقد أردت أن أقوم لهذا الكتاب بعمل أتقرب به إلى الله تعالى»، وحسبك دليلًا على هذا الإخلاص العزيز بقاء مؤلفاته هذه الأزمنة المديدة تتعدد طبعاتها ويتلقاها طلاب العلم ويفيدون منها ويدعون لصاحبها، وإذا صدقت المقولة الذائعة: (يطبع الكتاب على قدر إخلاص مؤلفه) على أحد من المؤلفين فإنها أصدق ما تكون على الشيخ محيي الدين عبد الحميد.

ومما يمكن تلمُّسه من صفات الشيخ الجليل عمَله الدؤوب ومواصلته البحث والكتابة والتأليف، مذ كان في الخامسة والعشرين من عمره، فقد كان أول كتاب وضع فيه يده الكريمة ويمينه المباركة هو كتاب (مقامات الهمذاني) الذي أخرجه وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وظل على ما أخذ به نفسه من الجد والإتقان حتى آخر حياته المباركة، وتشهد بذلك جلسات مجمع اللغة العربية التي احتفظت مجلداتها بأقوال الرجل وآرائه، وردوده ومناقشاته وهو في آخر أيامه.

ومن دلائل عمله الدؤوب أن كَتبَ حواشيه على شرح شذور الذهب لابن هشام في شهرٍ واحد، وكتبَ حواشيه على شرح جوهرة التوحيد في بضعة أيام.

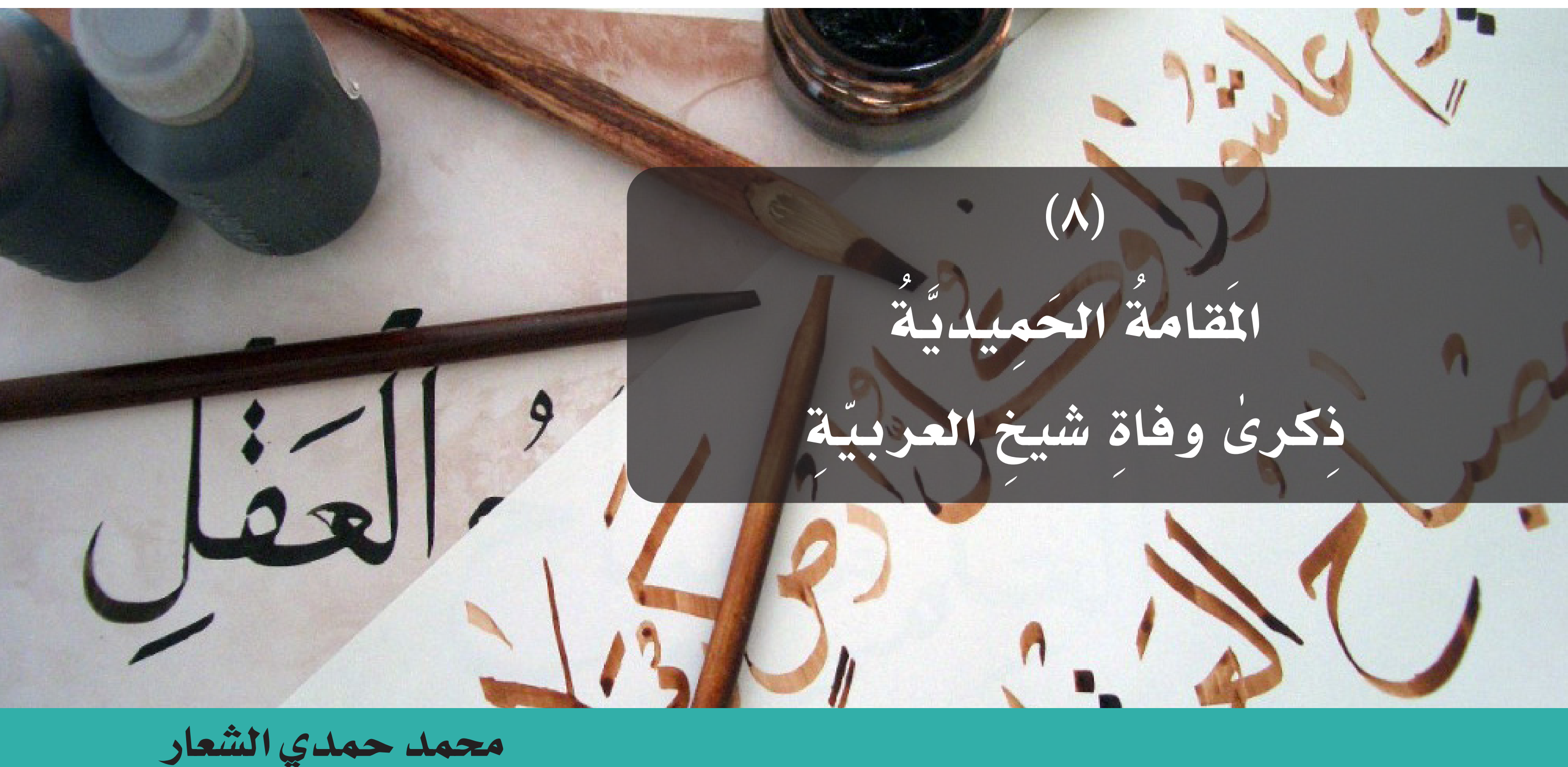
ومن صفات الشيخ -رضي الله عنه- حرصه على إفادة الطالبين ونفع الدارسين، مع حب لهم ورحمة بهم وشفقة عليهم، وتلمس ذلك كله في نحو قوله: «وهنا أمران أنبهك إليهما»، أو: «وهنا أمور أنبهك إليها»، وفي نحو قوله: «فاحفظ هذا كله وكن منه على ثبت والله يتولاك»، وفي نحو قوله: «والله يرشدك»... إلى غير ذلك من عباراته التي تناثرت في حواشيه، وهي عبارات يخاطب بها الأب أبناءه؛ حبًّا فيهم، وحرصًا منه على ما ينفعهم.

ولا تخطئ عينٌ نظرت في حواشي الشيخ -رحمه الله- ثم نظرت في غيرها من كتب أهل العلم أن تدرك أن الشيخ قد يسَّر كثيرًا من المباحث وقرَّب كثيرًا من المسائل بلسان عربي مبين يجمع المتعة إلى الفائدة.

ولا أريد أن أختم هذه الكلمة الموجزة في حق الشيخ قبل أن أستمطر شآبيب رحمة الله على الأستاذين الكبيرين: محمد رجب البيومي، ومحمود محمد الطناحي، فهُما مِن خير مَن أنصف الرجل وذبَّ عنه، الأول في كتابه: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، والثاني في كتابه: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي؛ فعليهما وعلى الشيخ رحمة الله ورضوانه وسلامه وبركاته .







(٨)
المَقامةُ الحَمِيديَّةُ
ذِكرىٰ وفاةِ شيخِ العربيّةِ

محمد حمدي الشعار

حدّثَنا البدرُ الوضّاءُ، والقمرُ الضّأضَاءُ، مُعتصمُ بنُ شَيخِنا مُقيلِ العِثارِ، مأمونِ الجَنابِ مكفيِّ الجارِ، مُحمّد حمدي الشّعارِ، وصَحنُ المَسجدِ (العمريِّ) ساعتئذٍ ليسَ فِيهِ فُسحةٌ لِقدمْ، والنّاسُ تضطربُ فِيهِ اضطرابَ الحِمَم: بأنّ اللَّهَ قد هيَّأَ لهُ من أسبابِ البلوغِ، ما حصَّلَ بهِ عُلومَ العربيّةِ فنبغَ فيها أيَّمَا نُبوغْ، بتلقّيهِ وأخذِه عنِ العالمِ الخِرِّيتِ، مَعلومِ القدرِ ذائعِ الصّيتِ، شيخِ العربيّةِ وحاملِ لوائِها، ومُنقذِها ممَّا أَلَمَّ بها من لَأوائِها، العلّامةِ العَلَمِ المُتصرِّفِ في وُجُوهِ الكلامِ، صاحبِ التّصانيفِ والتّآليفِ العِظامِ -مُحمّد محي الدينِ عبدِ الحَميدِ- ذي القدرِ السّنيِّ، والمَقامِ العَليِّ، والعُنصرِ المجيدِ، وارثِ عُلومِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّةِ، ماجدِ الأخوّةِ والبنوّةِ والأُبوَّةْ، عليهِ منَ اللَّهِ شَآبيبُ الرَّحَموتِ، والعفوِ والغُفرانِ من ذِي المَلَكُوتِ، وكانَ أوحدَ عصرِه، وأمجدَ مِصرِه؛ فَبذَّ شيخُنا أقرانَه بِحُسنِ صحابتِهِ، وتَصدَّرَ المجلسَ في حَلْقَتِهِ، ثُمّ لمْ يَلبَثْ أنْ سَلَّمَ وانصرفَ، والقومُ يَنْتاشُهم الفُضولُ ويقتادُهم إلى المزيدِ الشّغفُ.



(٩)
في ذكرىٰ وفاة الركن النحوي الأجلّ العظيم سيدنا الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

أحمد عبد الحميد

أذكرُ منّتَه التي قلّدنيها في عُنقي، حين أمسكتُ يومًا، وأنا في الكلية، بشرح ابن عقيل يرحمه الله على ألفية ابن مالك، فألفيتُني كلما استغلق عليّ شيءٌ من شرح الإمام فزعت إلى «منحة الجليل»، تلك الحاشية العظيمة التي نوَّرَ بها هذا الشرحُ، وزاد ضياؤه، فأجده يأخذ بيدي فِعلَ الأستاذ البصير الذي يكتنف طالبه المقرَّب، فيحكي له مسائل العلم من مبتدَئِها، من حسِّها وبسِّها، فيُسيغه إياها شرابًا هنيئًا مريئًا.

لا أجدني بعد كل هذا ،وبعد أن خبرت من كتب هذا الفن ما خبرت إلا مستذكرًا منّةَ هذا الرجل عليَّ وعلى كل آخِذٍ في طريق الانتحاء في أوله ومنتهاه.

واعلمْ أن الرجل كان يصطفي لك من كلام أهل العلم ومن مسائلهم وعللهم ويجمعه لك ببصيرة نحويّ حاذق، مضطلع بهذا الفن، ومُنته في غايته إلى نهاية بعيدة الغور.

رحم الله الشيخ العظيم، فكم أحيا عقولًا وأفئدةَ، وكم بصّر السالكين بدروب هذا العلم، وجعل لهم معراجًا مستقيمًا إليه.






(١٠)
مسك الختام

عصام الشتري

١- الإخلاص لله ولدينه هو ديدن الشيخ الجليل، فخلد الله ذكره بين الناس وكذلك إخلاص محبي الشيخ فخرجت كلماتهم كالضياء.

٢- لم يُدر بخلدي يومًا مقدار هذا المقة والحب الخالص للشيخ، فتبارى المحبون في ملحمة لو نُشرت في كتاب لنفدت طبعاته الواحدة تلو الأخرى.

٣- لبى المحبون طلبي في تقريظ الشيخ الجليل، فكانوا كالنحل الذي امتص الرحيق ليحيله عسلًا شهيًّا، منهم: الأديب الكبير باسم بلام، والأديب الكبير محمد بركات، والأديب اللغوي الأريب طاهر العلواني، والدكتور المحقق العلامة منيب ربيع، والأستاذ اللغوي أحمد عبد الحميد، والأستاذ الشاعر محمد حمدي الشعار، والأديبة الشاعرة «شام الهوى» إيمان الحريري، والأستاذ الكبير عبد العزيز أبو زيد... فجزى الله كلَّ خير جميعَ مَن أحيوا ذكرى الشيخ.

٤- هناك قضية حدَّثني بها غير صديق، وهي (سرقة) كتب الشيخ، فأخبرني أحدهم أن المعاهد الأزهرية للمرحلة الثانوية سطت على كتاب من كتب الشيخ وهو شرحه على ابن عقيل، دون عزو ذلك إليه، ووضعت أسماء لأساتذة محْدَثين، وزعموا أنهم مؤلفو الكتاب، وأنا لم يتسنَّ لي المقارنة بين النسختين، نسخة الشيخ محيي الدين، ونسخة الأزهر، حتى أتأكد من دقة الكلام، فإن كان ذلك حقًّا فأين حقُّ الشيخ؟! ومع أن العلمَ رحم بين أبنائه، إلا أن ذلك لا يمنع ذِكر اسم الشيخ على كتب المعاهد الأزهرية، فهذا أقلّ شيء يكرم به الشيخ.

وأخيرًا، فسلام على الشيخ في الأولين وسلام عليه في الآخرين... واللهم ألحقنا به في الصالحين تحت راية النبي الأمين فرطنا على الحوض الشريف...

القسم الثالث

عالَم الكتُب



في ظلال رسالة الإمام الخطّابي الموسومة بـ(بيان إعجاز القرآن)

د. عزمي عبد البديع

ليس من المبالغة أن أقول إنّ الرسالة التي خطّها الإمام الخطّابي (ت ٣٨٨هـ) -رحمه الله- على إيجازها قد جاءت شافية في تقريب شأن الإعجاز إذ أبان فيها ظواهر التميّز والتفرّد في أسلوب القرآن الكريم بعدما أشار إلى أقوال أهل العلم في الإعجاز من مثل القول بالصَّرْفة والإخبار عن المستقبل والغيبيَّات والبلاغة.

وخلص الخطابي إلى أنّ الإعجاز من جهة البلاغة هو الوجه الأمثل والأقرب للحق والصواب لاستمرار البلاغة في جميع سور القرآن الكريم دون تمييز وقد وقع التحدي في القرآن الكريم بمطلق لفظ (سورة) دون تحديد سورة بعينها وفق ما يقتضيه تنكير اللفظ في العربية.

لكن الإشكال يَعرِضُ من جهة تفسير البلاغة فالناس في تفسيرهم لها لم يبلغوا الحدّ المقنع، وقد زعموا أن الكلام يقع فيه التفاوت من هذه الجهة دون أن يقف الناس على علل وأسباب ظاهرة مقنعة، وإذا سئلوا أحالوا إلى كلام غير مفهوم.

ويفترعُ الخطابي الكلامَ ليمهد للناس السبيل إلى تقريب أمر البلاغة التي إليها مردّ الإعجاز فذهب إلى أنّ عمود البلاغة أي الأساس الذي تُبنى عليه هو الاهتداء إلى اللفظ الدقيق المُشاكل للمعنى والذي إذا أُبدل به غيره فسد المعنى من جهة وذهبَ رونقُ الكلام الذي يكون معه سُقوط البلاغة من جهة أخرى.

وإذا كان الكلام -**على ما أبان الخطابيّ**- يقوم على أركان ثلاثة هي اللفظ والمعنى والنّظْم فإنّ إعجاز القرآن الكريم مردّه إلى بلوغ ذروة الكمال من الجهات الثلاث فالقرآن إنما صار

معجزًا لأنه «أتى بأفصَحِ الألفاظِ في أحسنِ نُظُوم التأليف مُضَمّنًا أَصَحّ المَعاني».

وهذه الأمور الثلاث يستحيل اجتماعها على جهة الكمال في كلام آحاد الناس لأنّ البشر بطبيعتهم عاجزون عن الإحاطة بالألفاظ التي تنهض بها المعاني كما أنهم عاجزون عن تحقيق الكمال في استواء النظم وشرائطه والحال في معالجة المعاني وطرائق بنائها أشدّ من كل ما سبق؛ لهذا كان القرآن معجزا وإن كانت حروفه من جنس حروف العرب وألفاظه من ألفاظهم.

وكيف السبيل إلى بلوغ المعاني القرآنية وقد انتظم الحديث فيها عن توحيد الله تعالى الموصوف بالجلال والكمال والحديث عن مبدأ خلْق الإنسان والسماوات والأرض والملائكة والساعة والحساب والجنة والنار والحديث عن الأمم الغابرة وما وقع لهم من العبر والمثلات... ووقع تصريف هذه المعاني جميعها بكل وجوه الخطاب الممكنة التي تقطع رقاب المعاندين وتقيم عليهم البرهان والحجة.

إنّ المعاني الصريحة والمضمرة في القرآن الكريم لا يستطيع البشر ولو كانوا مجتمعين أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا على أنها لا تنتهي ولا تنفد ولا تخلَق على كثرة الردّ حتى قيام الساعة وهذا هو الإعجاز.

فمن كان منهم محسنا بارعا في اختيار الألفاظ وقع في خطَل المعاني ومن رام المعاني تنكّب صراط الألفاظ ومن اهتدى إلى اللفظ والمعنى قد لا يسعفه التوفيق في ترتيب جهات النظم على الوجه الذي يستقيم معه الكلام ويصل به إلى أعلى طبقات البراعة والفصاحة.

وما ذكره الخطابيّ في رسالته كلام عميق بعيدٌ غورُه يطول شرحه وتغمُض مسالكه ويحتاج في إدراكه إلى التنقيب في كلام العرب ودواوينها وقراءة الشعر الذي هو محلّ الاحتجاج وتربية الذوق والدّرْبة وطُول الخدمة والممارسة؛ لتُعرَف الوجوه التي يُبنى عليها الكلام وتقوم بها المعاني والتهدّي إلى رسوم النظْم المتباينة وهو جهد لو تعلمون عظيم لا يقوى عليه رجل ولا رجلان ولا عصبة من الناس.

وكان الأجدر بنا أن تجتمع أمتنا على كلمة سواء وأن يلتفت أولوا الأمر ومن ولّاهم الله تعالى شؤون معاقل العلم في أوطاننا إلى هذا التراث للعناية والاهتمام به والعمل على إخراجه وتلخيصه للناشئة عسى أن تهتدي عقولهم إلى ما لم نهتد نحن إليه، ولا تعتقدوا أن الأول لم يترك للآخر شيئا فالأرزاق مقسّمة والحظوظ متفاوتة وفضل الله تعالى عظيم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

وفي سبيل تقريب أمر الإعجاز من جهة البلاغة كما استقر عند أهل العلم والنظر: ذهب

الخطّـابي إلى أنّ أجنـاس الكلام مختلفـة ومراتبها في نسـبة التِّبْيـان متفاوتـة ودرجاتهـا في البلاغـة متباينـة غير متسـاوية.

فمـن أجنـاس الـكلام جنـس يوصـف بالرّصـين الجـزْل ومنـه الفصيحُ القريبُ السـهْل ومنه الجائز الطلْق الرسْـل وهـذه درجـات الـكلام الفاضـل المحمـود دون النـوع الهجـين المذمـوم والـذي لا يوجـد في القـرآن شيء منـه ألبتـة.

واعتـبر الخطّـابي أنّ الـضرْب الأول هـو أعـلى طبقـات الـكلام وأرفعـه والـضرب الثـاني أوسـطه وأقصـده والثالـث أدنـاه وأقربـه.

كثـير مـن الدارسـين فهـم مـن كلام الإمـام الخطّـابي أن القـرآن الكريـم تتفـاوت درجـات بلاغتـه وفصاحتـه فمنـه البليـغ والأبلغ وهـذا يعني التفـاوت في بنـاء الأسـلوب القـرآني وفـق هـذه القسـمة التـي فصّلهـا في شرح أجنـاس الـكلام (الرصـين الجـزْل - الفصيـح السـهْل - الجائـز الرسْـل)

وراح هـؤلاء الدارسـون - **منهـم الشـيخ عبدالكريـم الخطيـب**- يدللون على هـذا التفاوت بنصـوص مـن القـرآن الكريـم بدعـوى أنّ بعضهـا جـزْل فخْـم وبعضهـا سـهْل عـذْب.

وكلام الخطّـابي لا يوحـي بشيء مما ذهبوا إليه وإنمـا أراد - رحمـه اللـه - أن يبـيّن للنـاس سـمات وأوصـاف الـكلام الفاضـل المحمـود فلـما كانـت أجنـاس الـكلام متفاوتـة وفـق اختـلاف النعـوت والأوصـاف المذكـورة لأنهـا صفـات متضـادة في ذاتهـا فيتعذر اجتماعهـا في كلام واحد من البشر.

وبـين يديْـك كلام الخطّـابي - رحمه الله - حتى يسـتبين سـبيل الحق والصواب يقول:

«فحـازت بلاغـات القـرآن مـن كل قسـم مـن هـذه الأقسـام حصّـة وأخـذت مـن كل نـوع مـن أنواعـه شُـعبة فامتـزج لها بامتزاج هـذه الأوصاف نمـط من الـكلام يجمع صفتـي الفخامـة والعذوبة وهـما عـلى الانفـراد في نعوتهـما كالمتضاديـن لأن العذوبة نتاج السـهولة والجزالـة والمتانة في الكلام تعالجـان نوعـا مـن الوُعورة».

«فـكان اجتـماع الأمريـن في نظْمه مـع نُبُوّ كل واحـد منهـما على الآخـر فضيلـة خُصّ بهـا القرآن الكريـم ليكـون آيـة بينـة لنبيّـه - صـلى اللـه عليـه وسـلم - ودلالـة لـه عـلى صحّـة مـا دعـا إليـه مـن أمـر دينه».

هذاالـكلام واضـح في محاولـة تقريـب فكـرة الإعجـاز مـن خـلال التميّـز والتفـرّد فالقـرآن الكريـم توصف آياته بالسلاسـة والعذوبة والفخامة والجزالـة في آن واحـد وذلـك مـما يتعـذّر تحققـه في كلام البـشر لاسـتحالة اجتـماع النقيضين أعنى (السـهولة والعُذوبـة والفخامـة والجزالـة) وتلْـكَ خصوصيـة تفـرّد بها النـص القرآني فـكان معجزا.

سـبَقَ أن أشـار الخطّـابي إلى أنّ الـكلام يقـوم

على ثلاثية اللفظ والمعنى والنظْم، وأنّ التفاوت والتمايز بين طبقات الكلام يتأتّى من هذه الجهات المذكورة، وبقدر الزلل فيها يكون النقص، وبقدر الإجادة والتوفيق يبلغ البيان ذِرْوة الفصاحة، ويرتقي إلى أعلى طبقات البلاغة.

كما ذهب الخطّابي إلى أن (عمود البلاغة) أي الأصل الذي تقوم به هو الاهتداء إلى التعبير باللفظ السديد الأخصّ الأشكل بمواضع الكلام، والذي لا يستقيم إلا به وإذا أبدلت به غيره، وأزلته عن مكانه، اختلّ المعنى، وفسد المراد، وذهب رونق الكلام، وسقطت بلاغته.

وفي هذا السياق يتعرّض الخطّابي لكثير من الألفاظ اللغوية المتقاربة في المعنى والدلالة، والتي يحسب أكثر الناس أنها متساوية في الإبانة والغرَض.

كـ(الحمد والشكر) و(البخل والشحّ) و(النعت والصفة) و(قعد وجلس) و(وبلى ونعم) و(عن وفي) و(ذاك وذلك) وغيرها من الألفاظ المشتركة في أصل المعنى وهي كثيرة في اللغة، وتنزيل هذه الألفاظ والحروف في موقعها المناسب، علم دقيق يذهل عنه أكثر الناس، ويغفُلون عن مواضعه.

تفصيل ذلك أنّ الحمد يقع في مطلق الثناء، والشكر لا يكون إلا على الجزاء، وأنّ الحمد يكون قولا كما يكون فعلا، كقوله تعالى (اعملوا آل داوود شكرا)، والحمد كذلك يكون في المحمود والمكروه، بينما الشكر لا يكون إلا في المحبوب، كما أنّ الشحّ أشدّ من البخل؛ لقوله تعالى (ومن يُوق شحّ نفسه فأولئك هم المُفلحون).

ومن الفروق الدقيقة في مواقع الحروف، التعبير بـ (في وعن) كقوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون)، ولو قيل: (في) لدخَل الجميع تحت العقاب والتهديد الذي توعّدت به السورة الكريمة في قوله (ويل للمصلّين).

وتأويل الآية الكريمة مع حرف (عن) هم الذين ينشغلون عن الصلاة، ويؤخرونها عمْدا عن مواقيتها المشروعة، حتى يخرج وقتها، ومع حرف (في) يكون المعنى الذي لا يدري عن كم ينصرف من صلاته عن شفع أو عن وَتْر؟

وفي الجواب عن السؤال يجري الاستعمال بـ (نَعَمْ وبلى) وبينهما فرق هائل؛ لأنّ (بلى) جواب في الاستفهام المنفيّ، و (نعم) جواب في الاستفهام المثبت، كقوله تعالى (ألسْت بربكم قالوا بلى) ولو قيل في الجواب هنا (نعم) لفسد المعنى، وتحوّل الكلام عن المقصود من إقرار الإيمان والتوحيد، إلى إقرار الكفر والعصيان.

والخَطّابيّ بهذا البحث الدقيق لا يذهب مذهب القائلين بالترادف، بل يخالفهم؛ لأنّ كل لفظ له خصوصيته، وإن كان الاشتراك قائما في أصل المعنى.



فكان القرآن معجزا من هذا الوجه، أي من جهة وضع الألفاظ وتنزيلها في منازلها الحقيقة بها؛ حتى يستقيم المعنى، ويبلغ البيان أعلى مراتب البلاغة التي يعجز عنها البشر؛ لقصورهم وذُهولهم عن مواضع الكلام ودقائق الألفاظ، مما قد يتعذّر معه استمرار الفصاحة في كلامهم كاستمرارها في القرآن الكريم.

ذكرنا فيما أمضيناه من القول أنّ الخطّابي ذهب إلى أن القرآن معجز من الجهات التي يقوم عليها الكلام وهي (اللفظ - المعنى - النظم) والبشر يتفاوتون في الوفاء بحق هذه الجهات الثلاث فمن أوفى باللفظ لم يوف بالمعنى ومن أوفى باللفظ والمعنى وقع في اختلال النظم والتأليف ومن هنا كان عجز البشر عن البلوغ إلى حدّ الكلام المعجز.

ثمّ أخذ الخطّابي يعرض بعضا من الشبهات التي قد تعترض عقول القاصرين عن فهم لغة القرآن الكريم ومقاصده أو الذين يعمدون إلى إثارة الشبهات فيطرحونها في طريق العوام من الناس حتى يقع الشكّ والارتياب في كتاب الله تعالى.

فمن هذه الشبهات التعبير بلفظ (أكَل) بدلا من افترس في قوله تعالى (فأكله الذئب) والعرب لا تعرف إلا الافتراس في لغة السباع خاصة على ما زعموا.

ولفظ (امشوا) في وصف حال المشركين بدلا من سارعوا كما في قوله تعالى (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) والمشي أدنى درجات السير.

ولفظ (هلَك) بدلا من زال في قوله تعالى (هلك عني سلطانية) والهلاك يكون في الأعيان والأشخاص والسلطان معنى فلا يصحّ فيه الهلاك.

وكقوله تعالى (والذين هم للزكاة فاعلون) ولا أحد من الناس يقول فعل فلانٌ الزكاة وإنما يقولون زكّى الرجلُ ماله أو أدّى زكاة ماله.

وكزيادة بعض الحروف ولا معنى لها كقوله تعالى (ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلم) وقوله (ولم يعْيَ بخلقهن بِقادر) والباء لا موضع لها ها هنا.

ومن الشّبَه التي قد تعرض من جهة سوء التأليف ونسَق الكلام بما ينبو عنه الذوق ولا تليق به الفصاحة على زعمهم وبهتانهم قوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) بعد قوله (أؤلئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة).

وقوله (وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين).

وكقوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) وليس في أول الكلام ما يصحّ به التشبيه على ما هو ظاهر في زعمهم.

قال المبطلون وقد يقع الحذف والاختصار كثيرا في القرآن فيشكل بذلك معناه كحذف أجوبة الشرط وهو كثير كما في قوله تعالى (ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كُلم به الموتى بل لله الأمر جميعا) فلم يذكر الجواب فبطلت فائدة الكلام وأصبح المعنى مبتورا.

وكقوله تعالى (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها) فأسقط جواب الشرط ونظائره كثيرة في القرآن الكريم.

ومن الشبه أيضا التكرار فقد وقع بكثرة ملحوظة كقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) وهو عكس ما سبق في أسلوب الحذف حيث إنّ التكرار يفسد الكلام أيضا.

ويدخل في هذا الباب تكرار القصص والمواعظ وضرب الأمثال في سور متفرقة وقد زعموا أن الأولى أن يقسّم القرآن على موضوعات موحّدة فتكون هناك سورة للقصص وسورة للمواعظ وسورة للحِكَم والأمثال وسورة للأحكام والتشريعات ونحو ذلك حتى يحسن ترتيب الكلام ويسهل حفظه في العقول وثباته في الصدور.

وقد يُدخل بين الكلاميْن ما ليس من جنسهما ولا قبِيلهما كقوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به) بعد قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة) وهذا ليس بالفصيح عند أهل البيان وأرباب الكلام.

ومن هذه الشبهات أيضا ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن الكريم بالإضافة إلى الواضح منها وهذا بخلاف ما عليه بلغاء الشعراء في استعمالهم الغريب وإكثارهم منه مما يشهد لهم بالتمكن في اللغة وقوة العارضة في البيان.

هذه مجمل الشبهات التي أثيرت حول البيان القرآني ولننظرْ كيف ردّ الخطّابي هذه الشبهات بالحجج والبراهين القوية من العلم باللغة وبوجوه الكلام وبفقه طرائق القرآن الكريم في الفصاحة والبيان وصدق الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

الردّ على شبهات الطاعنين:

ذكرنا فيما مضى من البيان أنّ الخطّابي قد عرَض لبعض الشبهات التي أُثيرت حول القرآن الكريم من جهة فصاحة ألفاظه وطريقة نظمه وتأليفه وكثرة الحُذوفات التي يستغلق معها المعنى والتّكرار في أسلوبه وقِلّة الغريب وزيادةِ بعض الحروف من غير فائدة وتكرارِ القصة الواحدة في القرآن أكثر من مرّة وهذا كله من مزاعم المُبطلين.



وكان الإمام قويّ الحجة لا يتكلّم إلا بالدليل والمحاججة بالعقل والمنطق والبرهان الساطع لتضلّعه في اللغة واستحضاره الشعر العربيّ الذي به يقع الاستدلال ويحتجّ به للقرآن الكريم وفقه لسان العرب.

وأما دعواهم أن القرآن عبّر بألفاظ غيرها أبلغ منها كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف ﴿فأكله الذئب﴾ والعرب تقول افترسه في السباع خاصة فقد ردّ الخطّابي عليهم الشبهة بالحجة اللغوية إذ (الفَرْسَ) في اللغة أصله دقّ العنق وإخوة يوسف ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا وأتى على جميع أجزائه عضوا عضوا فلم يترك فيه مفصلا ولا عظْما لأنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر تبقّى من جسده يشهد بصحة ما زعموا فلم يصلح في هذا الوجه إلا ما جاء عليه لفظ القرآن الكريم.

كما أنّ الأكل شائع في الاستعمال العربيّ الفصيح وليس كما زعموا وقد نقل عن ابن السكّيت اللغوي المعروف قول العرب في هذا المعنى نفسه «أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا -أي ما ترك منها قلبا ولا عظما ولا دما - ولبعض شعرائهم:

أبا خراشة أمّا أنتَ ذا نَفَرٍ

فإنّ قوميَ لمْ تأكلْهم الضّبُعُ

وقد يتوسعون في الباب فيقولون في اللديغ أكلته الحيّات والهوامّ والعقارب وفي لغةٍ عن بعض الأَعْراب (أكَلُوني البراغيثُ) فاستعاروا الأكل للقرْص وهو كثير في كلامهم.

وأما قوله تعالى ﴿أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيئ يُراد﴾ وقد زعموا أنّ (المْشي) أدنى الدرجات وكان الأولى والأبلغ أن يقول: (امضوا أو انطلقوا) ونحو ذلك وليس الحال كما ادّعوا لأنّ الآية في سياق الحديث عن وصف حال المشركين في ثباتهم على عبادة آلهتهم من دون الله وعدم انزعاجهم لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك عبادتها والتشنيع عليهم بسببها.

وهم إنما قصدوا أنهم ملازمون لسجيتهم المعهودة لا يصرفهم عن موقفهم صارف فكان يوصي بعضُهم بعضا أن امشوا على سجيتكم ولا تُعوّلوا على كلام محمّد ولو جاء القرآن بلفظ (امضوا أو انطلقوا أو سارعوا) ونحو ذلك لكان فيه انزعاج لهم والقوْم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه فثبت فصاحة لفظ القرآن الكريم.

وأمّا قوله تعالى ﴿هلكَ عنّي سُلطانية﴾ وقد زعموا أن الأولى والأفصح أن يقول (ذهب أو زال) ونحوهما لأنّ الهلاك يكون للأعيان والذوات والسلطان معنى من المعاني لا يصح فيه لفظ (هلَك) لكنّ الخطّابي ردّ باطلهم بأنّ لفظ الاستعارة (هلك) أبلغ من لفظ الحقيقة.

والقرآن الكريم ينتقل من الحقيقة إلى المجاز حين لا يفي لفظ الحقيقة بالمراد ولو قال (ذهب) ونحوه لكان المعنى مختلا فإن الذهاب يكون مظنّة العودة والرجوع وهنا الحديث عن زوال المُلْك والسلطان في الآخرة فهو زوال لا رجوع بعده فناسب المعنى لفظ الاستعارة لأنه أقوى في تصوير المعنى المراد.

وهذا كقوله تعالى ﴿وآية لهم الليل نسلخُ منه النهار﴾ فعبّر بالسلْخ على سبيل الاستعارة لأنّ لفظ الاستعارة أقوى من لفظ الحقيقة كالذي في (نخرج) ونحوذلك لما في لفظ المجاز من الإعجاز والتصوير.

وكقوله تعالى ﴿فاصدعْ بما تُؤمر﴾ والصدْع مستعار من صدْع الزّجاج وهو أفصح من لفظ الحقيقة الذي هو (أبلغْ) ونحوه لأن المعنى أن يكون بلاغه صلى الله عليه وسلم على نحو من التأثير والنفاذ بلاغا واصلا إلى القلوب كتأثير الصدْع في الزجاج ونحو ذلك.

وأمّا قوله تعالى ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ وكان الأولى -في زعمهم- أن يقول (يؤدون أو يعطون) ونحوهما فإن لفظ القرآن أبلغ لأنه أراد أن تكون الزكاة فعلا تاما لهم يزاولونه طوال حياتهم وهذا المعنى لا يستفاد على وجه الكمال إلا بهذه العبارة.

وأمّا ما ادعوه من زيادة بعض الحروف من غير معنى كزيادة الباء في قوله تعالى ﴿ومنْ يُردْ فيه بإلحاد بظلم﴾ فقد ردّ عليهم الخطّابي بأنّ زيادة الحرف في الكلام يقع في كلام العرب المشهود لهم بالفصاحة بخلاف المتأخرين والمحدثين.

وقد نُقل عن أبي عمرو بن العلاء - وهو الحجة في اللغة - قوله «اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن كلامنا هذا» انتهى.

لهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين كبشّار ودِعبل الخزاعي ونحوهما ويرجعون في الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم وإلى الطبقة الثالثة التي أدركت المخضرمين وذلك لعلمهم بما دخل الكلام في الزمن المتأخّر من الخلل والضعف والاستحالة.

والعرب قد تزيد بعض الحروف وتلغي معناها لإرادة التوكيد والإبلاغ وبهذا نزل القرآن الكريم كزيادة حرف «الباء» في قوله (بإلحاد بظلم) وكزيادة حرف «لا» في قوله تعالى ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ والمعنى أقسم.

وقد زعموا -بالإضافة إلى ما سبق- الاضطراب في نظم القرآن من جهة سوء التأليف كقوله تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ بعد قوله تعالى

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فكيف يلتئم نظام التشبيه والجهة كما يبدو منفكة في ظاهر الحال.

وقدّ ردّ عليهم هذه الشبهة بأن الكلام راجع إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فوجه التشبيه على انسجام الكلام بين الحالَيْن فكلاهما اجتمعا في سلامة العاقبة وصلاح المآل على كره من النفوس في بداية الأمر.

فالكُره الحاصل في بعض نفوس القوْم من قسمة الغنائم وقد ظنوا أنّ توزيعها باجتهاد محفوف بالهوى والمحاباة من الرسول -وحاشاه- ﷺ كذلك الحال أخرجك ربك من بيتك بالحق على كُره أيضا من الصحابة يوم بدْر إذ خرجوا على غير تدبير وتأهّب فكان في خروجهم وطاعتهم للرسول الكريم الخيرُ والفلاحُ وبهذا حصلت المناسبة وتحقق الجامع على أبلغ وجه.

وأمّا زعمهم دخول كلام مُعتَرَضٍ بين كلاميْن مما قد يحصل بسببه التنافر كقوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ بين قوله تعالى ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ وقوله ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ فإنّ الكلام المعترَض به هنا هو عين البلاغة وإنسانها لتثبيت قلب النبيّ الكريم ﷺ إذْ كان صلوات الله عليه أمّيا وكان إذا قرأ عليه جبريل أخذ يُردّد ويُكرّر القرآن خشية أن ينْسَى أو يفوته شيء فاعترضه القرآن مطمئنا قلبه الشريف ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ فجاء على أحسن نظامٍ وأبلغ بيان.

كما قد يقع من الأستاذ مثلا حين يلقى درسه على الطلاب ويلحظ انشغالهم بعارض كالتقييد والكتابة فيقطع حديثه قائلا لهم: دعوا الأقلام وركزوا معي أو افهموا عني ما أقول ثم يستمرّ في درسه كأنّه أراد أن ينبههم على أهمية العناية بالأمر ولم يكن بذلك قاطعا حديثه بكلام خارج عن الموضوع ذاته.

وأمّا ما عابوه على كتاب الله تعالى من كثرة الحذف والاختصار فقد عابوا وجها عظيما من وجوه بلاغته لأنّ البلاغة تقتضي حذف فضول الكلام وإسقاط زوائده ولا يوجد حذف في القرآن الكريم إلاّ وقد قامت قرينة حالية أولفظية أو سياقية تدل على المحذوف والمحذوف إذا دلت عليه قرينة كالمذكور تماما إلاّ أنّ الحذف في هذه الأحوال أبلغ.

وثمّ شيء آخر هو أنّ الحذف في القرآن الكريم أبلغ من الذكر في كل موضع ولو أنك

عمدت إلى محذوف في آية من آياته وصرّحت به وأظهرته في اللفظ والصورة لسقطت بلاغة الكلام وذهبت طلاوته كحذف أجوبة الشرط مثلا من نحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي لكان هذا القرآن وإنما الحذف هنا لتذهب النفس فيه كل مذهب كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لرأيت أهوالا عظيمة لا يمكن وصفها فتأمّل حالك مع الذكر وحالك مع الحذف لتدرك بعد ما بين الكلامين!!

وأمّا ما عابوه من التكرار في القرآن الكريم فإنّ التكرار في الكلام على ضربين محمود ومذموم والتكرار يكون مذموما إذا أمكن الاستغناء عنه وهذا ليس منه في القرآن شيء ألبتّة.

وأطول تكرار وقع في كتاب الله تعالى ما جاء في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإذا نظرت ستجد أنه كلما ذكَر نعمة أو ما يقوم مقامها أعقبها بما يُوجب شكرها إشارة إلى وجوب الإقرار بالنعمة والإحساس بها والتأكيد على العناية بها والاهتمام بشأنها وهذا صنيع فصحاء العرب يُكرّرون الكلام في مواطن العناية والتأكيد.

كما يقع من عتاب الرجل ولَدَهُ العاقّ حين يجْحَدُ فضلَه عليه فيقول له الوالد: (ألمْ أُحسنْ إليك؟ ألم أُنفق ما لي عليك؟ ألم أفعل لك كذا وكذا!) كل هذا على سبيل التقرير والتأكيد وتذكيره بنعمه وأفضاله عليه حتى يرعوي عن غيّه وضلاله.

ومن الشبه التي أثارها المشككون في إعجاز القرآن ما زعموه من إمكان وقوع المعارضة مما تبطل معه حُجّية التحدّي.

وفي سبيل نقض هذه الشبهة أخذ الخطّابيّ يشرح أوّلا مفهوم المعارَضة وصور وجودها في الشعر العربيّ وحدودها ورسومها المختلفة ولعلّ الخطّابيّ بهذا المنهج هو أوّل من شرع هذا الباب وأطال فيه المقال وفصّله وبيّنه بصورة جلية واضحة لا مزيد عليها.

وسبيل من عارَض صاحبه في أدبٍ أو شعْر أن يُنشيء له كلاما جديدا ويُحدث له معنى بديعا فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه، أو يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه وبيان ما تباريا فيه يوازي بذلك صاحبه أو يزيد عليه.

نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة الفحْل من وصف الفرَس وحكمت زوج امرئ القيس لعلقمة حين زعمت أنّ زوجها ضرب فرسه ومراه

بسـاقيْه وهـذا قد يقـدح في قوتـه ونجابته بخلاف علقمـة الذي أدرك طريدته دون ضرْب ولا تحريك سـاقين ولا صيـاح هكذا:

فأدركهنّ ثانيا من عنانه

يمرّ كمرّ الرائح المتحلّبِ

وكـما وقـع مـن الإجـازة بـين الشـعراء عـلى نحـو منازعـة الحـارث اليشـكريّ لامـرئ القيـس نفسـه كـما في قـول امـرئ القيـس:

أحارِ ترى بُريْقا هبّ وهنًا

فأجازه الحارث بقوله:

كنارِ مجوسَ تستعرُ استعارا

وقال امرؤ القيس:

فلم ترَ مثلنا ملكًا هماما

فقال الحارث:

ولم تر مثل هذا الجار جارا

هكـذا يقـول امـرؤ القيـس الشـطر الأول مـن البيـت ويجيـزه الحـارث في مُماتنة واقتـدار وكان امـرؤ القيـس يماتـن الشـعراء جميعا مـن ذي قبل فيعجزهـم فلـما ثبـت لـه الحـارث اليشـكريّ آلى عـلى نفسـه أن لا يماتـن شـاعرا بعـده.

ومـن صـور المعارضـة أيضـا تَعاطِـي الشـعراء المعنـى الواحـد فيرتقـي أحدهـما إلى ذروتـه ويقـصُر شـأو الآخـر عـن مسـاواته في درجتـه كالأعـشى والأخطـل حـين تنازعـا وصـف الخمْـر فـكان لأحدهـما العلـوّ وللآخـر السـفْل.

والسـبب الـذي دعـا الخطـابي للإطنـاب والتفصيـل في شرح مفهـوم المعارضة بين الشـعراء وبيـان وجوهها وتصرّفاتهـا في الكلام هو الحجاج المقنـع الذي يبطـل وصفَ المعارضـة وجريانها على الـكلام السـفيه الـذي نُسـب إلى مسـيلمة وغـيره مـن مثـل هـذا الـكلام الـذي يقـوم عـلى التحيّـف مـن ألفـاظ الغـير ومحـاكاة النظم والجـرْس دون التفطّـن إلى وجـوه المعـاني والتهـدّي إلى الملاءمـة والانسـجام في بنـاء النسـق البيـاني.

قـال مسـيلمة الكـذاب: (الفيـل مـا الفيـل ومـا أدراك مـا الفيـل) وهـذا مطلع فيه تهويـل وتصعيد وتفخيـم ثـم اقتـصر في الجـواب على ذكـر الذنَب والمِشْفر!

وكأنّـه أراد أن يحـاكي لفـظ القـرآن في قـول اللـه تعـالى: ﴿الْقَارِعَةُ * مَـا الْقَارِعَةُ * وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْقَارِعَـةُ﴾ فتأمّـل بُعْد ما بـين كلام وكلام وهو درْس لـو تعلمـون عظيـم لا يعرفـه إلا مـن عـرف مخـارج الـكلام ومـرن عـلى مقاطعـه ومبانيـه وعـرف وجـوه التـلاؤم والنّظـام.

فراجـع نفسـك الآن واشـحذْ بصيرتـك وأعـد الفكـر والنظر واقرأ ﴿الْقَارِعَةُ * مَـا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَـا الْقَارِعَـةُ * يَـوْمَ يَكُـونُ النَّـاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُـوثِ * وَتَكُـونُ الْجِبَـالُ كَالْعِهْـنِ الْمَنفُـوشِ﴾ فـدلّ عـلى الهـوْل العظيـم والآيـة الكـبرى التـي

تفجع الناس يوم الفزع الأكبر.

بينما البائس المسكين لم يَزد على أن قال: (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب قصير ومشفر طويل) فاقتصر من هذا المخلوق الهائل العظيم على أقل شيء فيه فلم يكن بناء المعنى صحيحا فضلا عن أنه لم يأتِ بكلام جديد وإنما أخذ من لفظ القرآن وحاكى الصوت والجرْس وغفل عن المعاني فأخطأ الطريق وضل سواء السبيل.

وأمّا قولهم : (ألم ترَ كيف فعل ربك بالحُبلى أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشا) فقد تحيّفَ لفظ القرآن أيضا ولم يبتكر حرْفا من عقله ومع ذلك أخطأ سبيل النظم والمعنى معا لأنّ بناء النظْم على أسلوب (كيفَ فعلَ) أينما وقع في كلام لا يكون إلا في الأمر الشنيع والحادثة الفظيعة.

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فانظر -رحمك الله- كيف بُني الكلام وانسجم نظامه حيث ناسب أوّل الكلام آخره.

وأمّا الجاهل المسكين لم يقع في ذهنه الفرق الهائل بين سياق الرحمة وسياق النقْمة فقال (أخرج من بطنها نسمة تسعى) والولد نعمة ورحمة وليس عذابا ونقمة.

ثم أخطأ من وجه آخر حيث قال (من بين شراسيف وحشا) والولد مقرّه الرّحِم في بطن الأمّ ولا علاقة له بالأمعاء والحَشَا فكان جهله جهلا مركّبا، فأين هذا الكلام الساقط السخيف من كلام الله الخالق العزيز؟!!

وبهذا تعلم أنّ القوْم لم يصنعوا في معارضة القرآن شيئا والأمر في ذلك واضح لا يخفى على ذكيّ.

خاتمة:

بعد أن أفحم الخطّابي شبهات المبطلين وأسقط دعاواهم بأقوى الحجج والبراهين وذلك بملكته الحجاجية وذائقته البيانية وتمكنه في فقه اللسان العربيّ بما يقطع الطريق على أهل الهوى والزيْغ والبهتان: ختم الخطّابيّ رسالته بالإشارة إلى وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم ليس من قبيل ما سبق شرحه وبيانه وهو أمر لا يتعلّق بلفظ القرآن ولا بمعناه ولا بنظمه وجرْسه وإنما هو ذلكم الروح التي تسري فيه مسرى الدم في العروق ومسرى الرطوبة في العود الأخضر وذلك هو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس!

هذا الوجه من الإعجاز لم يُسبق إليه الخطّابي وقد ذكَر أنّ أكثر الناس غافلةٌ عنه وهو الأمر المشهود وقد شهدت به آيات القرآن



الكريم في سياقات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

ولأثر القرآن الكريم في النفوس آمن به أكثر الناس في الصدْر الأول بمجرّد سماعه وهم الذين قد همّوا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ذهب إلى دار أخته شاهرا سيفه عازما على سفك الدماء فما إن سمع بضْع آيات من أول سورة (طه) إلا وتغيّر حاله وقد آمن وحسن إسلامه وكان له في الإسلام ما ترى وتسمع!

وعُتبة بن ربيعة قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بضْعَ آيات من صدْر سورة السجدة فرجع إلى قريش بغير الوجه الذي أرسلوه عليه.

والأعجب من كل ما مضى أن استمعَ إلى القرآن نفرٌ من الجنّ فصرّحوا بأن هذا الكلام الذي سمعوه أعجب ما سمعوا من الكلام وأنّه الكتاب الحق الذي يهدي إلى الرّشْد فأذعنوا له وأعلنوا الاعتصام بهداياته.

هذا هو الوجه الأعظم في الإعجاز إنه ذلكم الروح التي تسري في عروق سور القرآن وآياته ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

إنّ الأثر النفسيّ للقرآن أمر قوامه الأرْيحيّة والذّوق إذْ يُدرَك ولا يمكن وصفه كالروح التي تجري في البدن وكالمَلَاحة في الوجه الحسَن تدلّ على نفسها دون أن تجد لذلك سببا بينا أو علة واضحة.

وقد استفادت الدراسات الأدبية والنقدية قديما وحديثا من كلام الإمام الخطّابي -رحمه الله تعالى- في هذا الباب الذي لفت إليه وتنبه كثير من الدارسين إلى العناية بالنصوص الأدبية والشعرية ومحاولة تفسيرها تفسيرا نفسيا بالإضافة إلى التفسيرات اللغوية والسياقية.





مراجعة رواية "الغريب" لألبير گامو

أنس سعيد محمد

هل ننسب المذهب الفلسفي إلى الروائي أم ننسب الروائي إلى المذهب الفلسفي؟ هل الرواية هي ابتكارٌ لمذهب فلسفي جديد أم أنها تشكيل فني لفكرة فلسفية قديمة؟

أسئلة يمكن أن تطرح نفسها على كل من قرأ رواية (الغريب) التي صدرت عام (١٩٤٢م)، لكاتبها (ألبير كامو)، والمعروف بنزعاته العبثية التي جسَّدها، خير تجسيد، من خلال روايته القصيرة هذه التي لا تتعدى ١٤٤ صفحة، والتي قُسمت إلى فصلين متساويين تمامًا من حيث عدد الصفحات، والتي ترجمها، ترجمة جيدة جدًا تستحق الإشادة، الكاتب المغربي الشاب محمد آيت حنَّا.

تُعرف رواية (الغريب) بأنها تلخِّص مذهبًا فلسفيًا كاملًا، بل بإمكان الباحث الرجوع إليها إذا ما أراد التعرف عن قرب على مذهب العدمية والعبث، وأنا أعتقد أنها اكتسبت حرارتها ووضوحها من كونها أول عمل روائي للكاتب، فهي بذلك متصفةٌ ولا بد بما تتصف به الأعمال الأولى من لصوق شديد بذات المؤلف يحيل مباشرة إلى السيرة الذاتية، مهما كانت الواجهة القصصية متخيَّلةً أو مغايرةً في الظاهر لحياة المؤلف الخاصة.

يبدأ الفصل الأول من الرواية بتلقي البطل خبر وفاة أمه، وكان هذا الحادث الجلل بوابةً دخل منها الكاتب لوصف شخصية بطله اللامبالية إلى درجة غير آدمية، إذ تلقى البطل خبر الوفاة ببرود شديد مستفز جدًا، وبنفس

البرود الجليدي حضر جنازة أمه التي لم يتكلف حتى إلقاء نظرة أخيرة على وجهها قبل الدفن، ثم انطلق -بعد الدفن مباشرة- إلى حياته العبثية غير مبال بشيء، معلقًا على كل شيء بعبارته المتكررة الشهيرة: «لا فارق عندي».

تمرُّ صفحات الفصل الأول في وصف تفاصيل الحياة اليومية للبطل، وهي تفاصيل بدت في البداية متنافرةً تفتقر إلى الترابط، بل ربما يسأل القارئ نفسه عن جدوى وصفها أصلًا، وبأي شيء تخدم القصة، ثم تتطور الأحداث لينتهي الفصل الأول بجريمة قتل يرتكبها بطل الرواية، دون أي دافع حقيقي لها.

في الفصل الثاني، المماثل في حجمه للفصل الأول، يتوقف السرد القصصي تمامًا أو يكاد، ليقتصر الحديث على تفاصيل المحاكمة التي خضع لها بطل الرواية بسبب جريمته، وهنا يُفتح المجال للمونولوغات الداخلية، والتساؤلات الفلسفية، والإشكاليات الأخلاقية أو التي تبدو كذلك، والتي طرحتها ملابسات جريمة القتل تلك، وما أعقبها من تفاصيل الحياة اليومية التي كانت تبدو تافهة إبان سردها في الفصل الأول. سنرى كيف أن المحاكمة اتخذت منحى عجيبًا تجاوز مؤاخذة القاتل على جريمته إلى النبش في أعماق سريرته، وإخضاع أتفه تفاصيل حياته اليومية -حتى التي لا علاقة لها بالجريمة- إلى مجهر أخلاقي لا يرحم، كأنما يريد القضاة بذلك أن ينقِّبوا في روح المجرم على ذرة خير، ولو واحدة، تعصمه من عقوبة الإعدام، وتجعله مستحقًا لظروف التخفيف، وهو ما لن يجدوا له أثرًا بالنظر إلى أن كل ما صدر عن القاتل منذ وفاة أمه إلى لحظة ارتكابه للجريمة، لم يكن يدل إلا على نفس خربة صفرٍ من أي شعور، لا شيء فيها إلا الفراغُ المطلق.

سيجعلنا الكاتب في الفصل الثاني نتساءل -على لسان بطله- عن أخلاقية المحاكمة، وهو ما يبدو مناقضًا تمامًا لشخصيته العدمية التي تتنافى مع طرح الأسئلة الأخلاقية، بل بالتدقيق في الأمر نجد أن التساؤلات الأخلاقية للبطل نفسها كانت عبثية، وأنه كان ينظر إلى المحاكمة كما ينظر إلى أي ظاهرة طبيعية غريبة بعض الشيء. فقط نحن القراء بإمكاننا، بما نحتفظ به من الجدية في التعامل مع الحياة، أن نتأمل المحاكمة تأملًا أخلاقيًا، أما بطل الرواية، موضوع المحاكمة، فـ«لا فارق عنده» على كل حال، ولا شيء يهمه حتى لو كان الإعدام نفسه.

أثار انتباهي في الرواية أنها أول عمل لكاتبها، وأنه كتبها في شبابه، في التاسعة والعشرين من عمره فقط، وهي وإن كانت مفعمة بحرارة دالة على لصوقها بذات المؤلف وسيرته النفسية الذاتية، كما هي في الواقع معظم الأعمال

الروائية الأولى، إلا أنها تتميز بأسلوب رصين في الوصف والمعالجة، يوحي بنضج يفوق المرحلة العمرية للكاتب، كما يدلُّ على احتراف في الصنعة الروائية وقدرة عالية على الوصف الدقيق الخارجي والداخلي معًا.

وأما بالحديث عن لبِّ الرواية، وهو الفلسفة العدمية، فليس من الصواب بطبيعة الحال أن ننسب هذه الفلسفة إلى ألبير كامو ولا إلى غيره، فالكاتب هنا إن كان يعتنق الفكرة السيزيفية في تصوره لموقع الإنسان من الوجود، وأن سعيه في الحياة عذاب عبثي كسعي سيزيف، فما روايته هذه إلا تصوير أدبي لفكرته الخاصة التي اعتنقها بعد أن تعرف عليها واقتنع بها أو وافقت هوى في نفسه، بل إن قصة سيزيف نفسها ما هي إلا تصوير أدبي لفكرة العبث المجردة، وكل هذه الأفكار، بعد أن نجرِّدها من تمظهراتها القصصية والفنية، فإنها تعود بنا إلى أصلين عميقين لا ثالث لهما: الإيمان أو عدمه.

حين قرأتُ رواية (الغريب) متعرفًا بها على ما يدور في أعماق كاتبها، لم أجد في خلاصتها أكثر من تمثيل فني لحالة (الإلحاد التام)، وكل ملحد على وجه الأرض يفكر بتلك الطريقة نفسها، ويتصرف على أساسها، مهما كان مستواه الثقافي. هناك فقط أشخاص تسعفهم قدراتهم الأدبية على تطويع اللغة لصياغة أفكارهم صياغة قصصية، وآخرون لا يُعنون بالكتابة، لكن أسلوبهم في الحياة، كما يصرحون به بألسنتهم وكما يظهر من خلال أفعالهم، ينطق بتلك الأفكار نفسها وإن لم يكتبوها.

الأفكار هي انعكاسات لحالات نفسية وروحية، والإلحاد بما هو كفرٌ بالإله الخالق والبعثة بعد الموت والحياة الآخرة، فإن من طبيعته أن يولِّد أفكارًا مفرطة في الأنانية الدنيوية، وما دامت الحياة عبثًا فلا معنى للأخلاق ولا للفضيلة ولا للرحمة والشفقة، ومن ثمَّ فلا محرك للإنسان إلا منفعته الذاتية ولذَّاته الحسية، ولا رادع له إلا الخوف من الألم أو من فقدان القدرة على مزيد من الالتذاذ الحسي، وهكذا يغرق الملحد في اللذات الحسية حتى تتبلَّد حواسه ويفقد القدرة على الشعور بها، وحينئذ يجد نفسه أمام خواء داخلي مطلق، خائبَ الأمل في المتع الدنيوية كلها، ليستفحل العدم في روحه استفحالًا سرطانيًا يسوِّد في عينيه وجه الحياة فيضيق ذرعًا بوجوده فيها، فلا يبقى أمامه إلا الارتماء في أحضان الجريمة، أو الانتحار الذي يتوهَّمه خلاصًا أبديًا من آلام وجود لا غاية له ولا هدف.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا النمط من الشخصيات العدمية له جاذبية فنية شديدة، وغالبًا ما يحظى بإعجاب جماهيري مفرط، لما



يتيحه للكتاب من مجال خصب للاشتغال عليه، ولما يوحي به من متناقضات القوة والضعف، والشجاعة والجبن، والرقة والقسوة، فضلًا عن عذابات الروح التي تأتي في العادة بعد الارتفاع عن رغبات الجسد، ولعل هذا ما يفسر وجود (الشخصية العدمية) في عدد كبير، أو ربما في الغالبية العظمى من الأعمال الأدبية والفنية ذات الشهرة العالية، ولقد كان نجيب محفوظ من أوائل الكتاب العرب الذين قدموا أمثال هذه الشخصية، وأعني (محجوب عبد الدايم) بطل روايته الاجتماعية الأولى (القاهرة الجديدة)، كما أن (كمال أحمد عبد الجواد) بطل الثلاثية هو من أشهر الشخصيات الروائية العدمية على المستوى العربي.

أذكر أيضًا شخصية (يوهان ليبرت) من مسلسل الأنيمي الياباني (وحش)، وكذلك (والتر وايت) بطل مسلسل (بريكينغ باد) الشهير، والذي ارتمى في أحضان الجريمة في اللحظة التي أيقن فيها بالموت القريب، وهي لحظة (عدمية) إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن (والتر وايت) لا يؤمن بالحساب بعد الموت.

رواية (الغريب) لـ (ألبير كامو)، توصيف دقيق لحالة الإلحاد وما يترتب عليه من الأفكار العدمية، وهي رواية على قدر من الخطورة بالنسبة لمن كان مهزوز الإيمان ذا قابلية لتشرب الأفكار الإلحادية، إذ سيجدها تعبر عن دواخله على نحو يعجز هو عن مثله، وأما الثابتون على إيمانهم فستجعلهم يحمدون الله على نعمة الإيمان، وعلى أن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، وأن ثمة بعد الحياة الدنيا حياة أخرى تُنصب فيها موازين القسط، ولا يظلم ربنا فيها أحدًا.





قراءة في ديوان محمد عبد الباري (لم يعد أزرقًا)

د. عدي جاسر الحربش

هـذا الديـوان الذي صـدر مؤخـرًا بمثابة حجر كريـم أزرق، صنعـه محمـد عبـد البـاري بانتبـاه، وتعهّـده بحـرص، كي يهبَنـا الغنـاء في أوقاتنـا الصعبـة. وحـذارِ أن يخدعـك عنوانه عـن حقيقته، إنّـه أكـثر دواويـن عبـد البـاري زرقـةً.

وما دمنا في سـيرة الزرقة سـأذكر كتابًا سـاحرًا لـ«ويليـام جاس» عنوانه: «أن تكـون أزرق المزاج» لا أنفـكُّ أوصي أصدقـائي بقراءتـه. يقـارب مؤلفه معنـى الزرقـة أدبيًـا وفلسـفيًا، ويخلُـص إلى ربطها بالكآبـة وبالرغبـة، ذلـك لأنّ الأزرق حـين نتقحّمه يختفـي، وهكـذا الرغبـة مـا أن ننـال مـا نشـتهيه حتـى تنطفئ.

يتسـاءل «جـاس» في كتابه: ماذا يغـشّي حياتنا بالسـاتان؟ مـا الـذي يغـوص بنـا إلى كآبـة أعمـق؟ الوحـدة؟ الخواء؟ عـدم القيمة؟ الحـزن؟ كل واحد مـن هـؤلاء عوز. ليـس لدينا ألم، لكنّـا فقدنا اللذة، والشـفة التـي تطبـق عـلى شـفتنا هي دائمًـا نصف ثغرنـا. إذن الأمـر حقيقـة: أن تكـون دون أن تكون زرقـة محضة.

لكـنّ محمـد عبـد البـاري ابـن ثقافتـه العربية، والأزرق الـذي يقاربـه يختلـف عـن أزرق «ويليـام جـاس»؛ إنّـه لـون السـماء والبحـر، لـون العمـق والعلـو والسـعة، وحـين يخسـر الشـاعر نفسـه ثـمّ حبيبتـه ثـمّ جماعتـه -كـما يطلعنـا في فهـرس خسـاراته- هـو بالـضرورة يخسـر زرقتـه. هكـذا يريدنـا أن نظـن، لكنـي أقـول بخـلاف ذلـك.

البحـر لا يغـدو أزرق إلا إذا خرجنـا منـه، والسـماء لا تـزداد زرقة إلا إذا ابتعدنـا عنها، وهذا



يحيل إلى زرقة «جاس»، لكنه يحيل أيضًا إلى ثيمة أخرى في ديوان عبد الباري حيث كُتب الديوان بالكامل في نيويورك، بعيدًا عن سلمى والأصدقاء والوطن، معنًى أراد الشاعر أن نلتفت إليه حين أشار إليه أول ديوانه.

لم يكتب عبد الباري هذا الديوان إلا بعد حَبسةٍ استمرت سنتين، معنًى آخر أراد أن نتوقف عنده. لكي يستردَّ الشاعر صوتَه كان عليه أن يبتعد عن قومه وعن أصدقائه وعن سلمى، أن يهرب من حالة شبيهة بوصف «جاس»: أن تكون دون أن تكون زرقة محضة. كان عليه أن يخسر كل هؤلاء كي يجد نفسه.

هناك كثير من المُراجعات في ديوانه، بل إنّ بعضها يكاد يكون انتفاضة ضد أفكارٍ قديمة؛ بدل المِثالي أطلَّ الواقعي، وبدل العُمومي أطلَّ الفردي، وبدل تصوُّر ساذج للحرية أطلَّ تصوُّر أكثر تحرُّزًا وتشاؤمًا يرى العبودية مستشرية في كلِّ أنماط الحياة اليومية [قارن (ما لم تقله زرقاء اليمامة) بـ(فيلة سلفادور دالي)].

رغم ذلك هناك نمط من التتابع والالتفات في مشروع عبد الباري؛ تنجم فكرة أو يبرعم تشبيه فيستخدمه في بيت مفرد، ثم لا يلبث حتى يعود في ديوان لاحق فيحوِّله بستانًا كاملًا. فمَثلًا حين كتب في ديوانه الثاني:

فلا تكثرْ عليّ من الوصايا

وإن ضيّعت أندلسين لهوا

لم يلبث حتّى عاد إلى الفكرة فسخّر لها قصيدةً كاملة في ديوانه الثالث عنوانها «أندلسان».

ومثلًا حين قال في قصيدته «الخروج من نصف الوردة»:

أحبكِ في أزرقٍ لا أسمّيه لونًا

ولكنْ أسمّيه موتي

لم يلبث حتّى عاد إلى معنى الزرقة في ديوانه الجديد «لم يعد أزرقًا» ليحملها إلى أقصى ما تحتمله من مَعانٍ.

يحوي الديوان (١٦) قصيدة: (١١) منها عامودية، و(٧) تفعيلة، ومن اللافت أنّ قصائد التفعيلة أصبحت بجودة العامودية نفسها وبتركيزها نفسه، شيءٌ كنَّا نأخذه عليه سابقًا ولم نعد نستطيع تكراره بعد أن تفتَّقت عبقريَّته عن قصائد من نمط: «تاريخ عاديّ لامرأة غير عاديّة» و«فيلة سلفادور دالي».

أولَى الشاعر عنايةً خاصة تجاه المعمار والهيكل الكلي لديوانه، تجد ذلك في الطريقة المبتكرة التي فهرَسَ بها قصائدَه، وفي اقتباساته الذكية من «لسان العرب» وكيف حشاها بالمعنى وسخّرها كي تكون مفاتيح للقصائد، ولتؤكّد هُويَّته كغريبٍ ترك كل شيء وراءه ولم يَصحب معه سوى هذا الكتاب / اللسان العربي.

سأختار أربع قصائد لأعرّج عليها سريعًا:

- واحدة من القسم الأول «أزرق يخسر عُمقه».
- واثنتين من القسم الثاني «أزرق يخسر علوّه».
- وواحدة من القسم الثالث «أزرق يخسر سَعته».

وأظنك استنتجت أيّ أقسام الديوان أَحبُّ إلى قلبي، فلَطالما كنتُ ضعيفًا أمام قصائد الغزل والفراق.

لا أحد يكتب مَطالع كعبد الباري، وكما يُعنى بصياغة مَطالع قصائده يُعنى أيضًا بانتخال القصيدة الأكثر تعبيرًا عن فلسفته فيفتتح بها ديوانه. هذه العينية أول ما يقابلك في الديوان، ولَطالما كان رَوي العين صوتًا للتحطُّم وللتصدُّع بالعربية، منذ مرثيّة أبي ذؤيب الهذلي وحتّى هذه القصيدة:

النسخة الثانية من الغريب

«الغضبة: الصخرة الصلبة المركبة في الجبل المخالفة له»
لسان العرب

يا من عرفتُكَ
بالتماسُكِ مولعا
حريّةُ الجدرانِ أن تتصدّعا

ضاق المدى المكتوبُ باسمكَ
فلتكنْ أنتَ التشظي فيه كي يتوسعا

لك أن تدوّيَ غاضباً من عالمٍ أخفاكَ وليكن الدويَّ المفزعا

لك أن تعاودَ أنتَ تفجيرَ الطبيعةِ
إن بها فضّلتَ أنْ تتطبعا

أن تستقيلَ من التطابقِ:
نزعةً رأت الظلالُ لمثلها أن تنزعا

١٥

ها هنا غضبٌ وإرادةُ تغيير، لكنّها إرادة تغيير من نوع آخر؛ لا تُطالب المجتمع بالتغيّر وإنّما تبدأ بنفسها، لا تسأل الجدران الحركة وإنما تخلق لها متنفسًا حين تفارقها. ها هنا غضبة، لكنّ اللفظة لا تحيل فقط إلى تلك العاطفة الملتهبة، وإنّما إلى الصخرة المركّبة المخالفة للجبل.

تأمّل كيف اختار الشاعر كتابةَ البيت الأول في ثلاثة سطور، ثم الثاني في سطرين، ثم الثالث في سطر، وكأنّ الغضب آخذٌ بالتزايد حتّى لم يترك متسعًا لاسترداد الأنفاس. ثمّ تأمّل كيف تبدّل مزاج القصيدة فجأة حين حكى عن سبب غضبه فإذا بذلك التصدّع والتشقق يتحوّلان نغمًا في غاية الشجى والحزن.

لم يعد أزرقًا

أن تَخلعَ الوادي المليء تواضعاً
أن تَلبسَ الجبلَ المليء ترّفعا

وتحرّكَ الزلزالَ
صوبَ الثابتِ الشبحيٍّ في الأيام
كي يتزعزعا

وتزيلَ عنك من المياه سكونَها
وتفضّها مستنقعاً
مستنقعا

وترّدَ ميراثَ النسيمِ لأهله الفقراءِ
كي ترثَ الرياحَ الأربعا

***

يقول عبد الباري:

يا عاتبًا جدًا على الطرقات إذ

أخذتكَ منك مودّعًا ومودَّعا

هو أنت من أسرى لشيء لم يكن

أبدًا وأنسابَ الفراغ تتبعا

متداخلًا فيك الهدوءُ المنتمي

لأسى الحقيقةِ بالهدوءِ المُدّعى

شاهدتَ عمركَ وهو يُرفعُ رايةً

بيضاءَ كم نزفت لكيلا تُرفعا

سُرقت خصوصياتُ وجهك كلّها

وتُركتَ ما بين الوجوهِ مُوزّعا

ومُنحتَ حين مُنحتَ قفلًا لا فمًا

متكلمًا وسلاسلًا لا أضلعا

أُبعِدتَ عن سربِ الحمام مُطَمأنًا

وأُضِفتَ في سرب الحمامِ مُروَّعا

مهما أطنبت في تقريظ الأبيات لن أوفيها حقها.. هنا شاعر بلغ الذروة في التحّكم بأدواته.

تأمّل النغم الناتج عن المراوحة بين اسم الفاعل والمفعول بتغيير حركة، ثم تأمّل صراحته الجارحة وكيف وصف تداخل الحزن الناتج عن إدراك الحقائق بالحزن المتكلّف فوق صفحة وجهه، ثم ردِّد:

أُبعِدتَ عن سربِ الحمام مُطَمأنًا

وأُضِفتَ في سرب الحمامِ مُروَّعا

بسيط حد التعقيد، ورائع حد الإعجاز.

ثمّ لا يلبث الغضب أن يتصاعد ثانية، لكنّه غضب حكيم هذه المرة، غضب تعلّم من أخطائه، ينصرف عنفه إلى ذاته، ويؤمن أنّ أولى خطوات التغيير تبدأ باشتغال الفرد على نفسه:

يا صاحب الساعات صوت فنائها

يدعوك فلتذهب إليها مسرعا

قبل انتهاء الماء أعلنه انقلا

بَ الماء كي يلد المصبّ المنبعا

قشِّر تجاعيد النهار ليزدهي

وجهًا وحُكَّ الليلَ حتى يلمعا

وأضِف إليك من الزوايا حدّةً

حتى يصيرَ الدائريُّ مربعا

فبغير هذا الأحمرِ الثوريِّ في

عينيك لن تجد القصيدةُ مطلعا

وهكذا تولد القصيدة أخيرًا، وتنقطع الحبسة الشعريّة.

إن كان لزامًا على الشاعر أن يخسر نفسه كي يجد ذاته الجديدة، فلا بدّ أن يخسر محبوبته أيضًا كي يحوّلها من المباشر إلى المثالي، ومن الفاني إلى الأبدي، حقيقة أخرى تعلّمناها من «كيركجارد» حين فسخ خطوبته من «ريجينا أولسن» ثم حبّر ثلاثين كتابًا فلسفيًا لا تخلو ورقة فيها من طيف ريجينا.

تأمّل هذا المطلع الفاتن وحقّق ما قلتُه عن براعة الاستهلال:

ولي من لا نهائيات موتي

ثلاثتها عيونكِ والرحيلُ

هنا تقف الرياضيات عاجزة: وعدَ بثلاثة أشياء ثم لم يعدِّد سوى شيئين! لكنّ أحد الشيئين عينان! لكنّه ذكرهما بصيغة الجمع! حقًا، ما أوسع اللغة، وما أضيق الحساب!

أنا مولع بالمطلع السابق جدًا. لَكأَنّ عبد الباري حشَد في تثنية العينين ما يحشد النصارى من أسرار حين يثلِّثون أقانيمهم.

ثم يضيف:

أحبكِ لكن البدويّ مني

يميل مع السحابة إذ تميلُ

لقد حاولت أن أنشقّ عني

ليسكن فيك تطوافي الطويلُ

ولكني أنا سفري تمامًا

كما أنّ الحصان هو الصهيلُ

تأمّل البيت الأخير، فهو رغم بساطته عميق جدًا، والشاعر لا يستطيع أن يؤدّي المعاني العميقة في صياغات بسيطة إلا إذا كان في قمّة تمكنه من أدواته كما أسلفت.

ثم تأمّل الأبيات التالية، وكيف أخذت ترق وترقّ حتى تحوّلت نغمًا صافيًا:

سأذهبُ لا استراحت من ضلوعي

مداخنُها ولا بردَ الغليلُ

ولا حرّرتُ صوتكِ من حَمامٍ

نأى عني ليتسعَ الهديلُ

ولا استقصيتُ وجهكِ وهو يجري

به سربُ الفراشاتِ الجميلُ

ولا وحّدتُ في معناك ذاتي

فنصفي قاتلٌ نصفي قتيلُ

وحتّى لم يقلكِ فمي تمامًا

فأنتِ كثيرةٌ وفمي قليلُ

رباه، أيُّ معنًى هذا؟! هكذا يجدر أن تُختم القصائد.

عنوان القصيدة الثالثة «الشبابيك في سهرها الأخير» وهو عنوان ذكي مفعم بالدلالة، فكما يدَّخر الشاعر الجاهليّ ما تبقّى من عشقه وذكرياته في أطلالٍ وأثافٍ، كذلك يدّخر شاعرنا ذكريات الليلة الأخيرة في شبابيك يتذكّرها من تلك اللّيلة، شبابيك جدران وشبابيك وجوه، فكلها تسهر وتغلق درفاتها.

هذه أكثر قصائد عبد الباري خصوصيّة، يبوح فيها باسم محبوبته، ويصف ليلتهما الأخيرة قبل الفراق، وأظنني لا أذهب بعيدًا إن قلتُ إنها من أعذب ما كُتب بالعربية عن الوداع.

يقول عبد الباري:



تعالي قاسميني ما تبقّى

كما يتقاسم الأمواجَ غرقى

بأشجى ما به يبكي نحاسٌ

ويُبكي آخر الأجراسِ دقّا

لن أعيد ما قلته عن براعة الاستهلال كي لا أقع في الإطالة والإملال، لكن أيّ معنًى هذا؟ كما يتقاسم الأمواجَ غرقى! قيل إنّ الفرزدق سجدَ حين سمعَ بيتَ لبيد:

وجلا السيولُ عن الطلول كأنّها

زبرٌ تجِدّ متونها أقلامها

وإخاله كان سيفعل لو أدرك عصرنا وسمع هذين البيتين.

ثمّ تأمّل شجن هذه الأبيات وحاول ألّا تشرَقَ بحزنك:

فيا من كنتِ مما كنتُ أعلى

ويا من كنتِ مما كنتُ أنقى

ظننتكِ فكرتي وشككتُ أنّي

سهرتُ عليك تكوينًا وخَلقا

خروجي منكِ سوف يكون جُرحًا

يريدكِ ما أرادَ الجُرحُ عُمقا

غدًا سأكون كالتابوتِ قلبًا

وكالبالي من الراياتِ خفقا

كما قبل البكاء أسًى وتيهًا

كما بعد القصيدة حين تُلقى

أبياتٌ تكاد تذوب ذوبًا، وأجراسٌ تملأ الحناجر غَصصًا. إن كان ليس بوسع الطرق الموازية أن تتوحد، فليس أمامه إلا أن يحبها في حياة موازية، أن يحوّلها من المباشر إلى المثالي:

ستأخذكِ الرياح الآن مني

ويا كم يأخذ الأقسى الأرقّا

ولكني وعدتُ بأن أوالي

زيارةَ قصركِ الليليَّ برقا

له أن يُغلِقَ الأبوابَ دوني

ولي أن أوجعَ الأبوابَ طرقا

يا لها من أشطر! ويا كم يأخذ الأقسى الأرقّا! ولي أن أوجع الأبيات طَرقَا! أظنني سألبث زمنًا أتمثّل بهذه الأبيات. ماذا بوسعي أن أقول يا عبد الباري؟ شعرك كثيرٌ وفمي قليل.

القصيدة الرابعة تفعيلة، عنوانها «فيلة سلفادور دالي» وتنتمي إلى القسم الثالث من الديوان: (أزرق يخسر سعته)، وهي قصيدة حصيفة عن الحياة، فيها من النضج الفلسفي والتمكُّن الأسلوبي ما يجعلك تجزم أنك أمام شاعر اشتغل على نفسه كثيرًا، وهو بتفوّقه على نفسه يتفوّق على أقرانه.

تستلهم القصيدة عنوانها من لوحة لدالي تصوّر فيلةً ذات سيقان عنكبوتية وطويلة. ترزح تلك الفيلة تحت ثقل مسلّاتٍ تكاد تسحق ما

فيلة سلفادور دالي

«تنفّست القوسُ: تصدّعت»
لسان العرب

نريدكِ
يا كلَ حصتِنا في السكوتِ
لأنَّ الكلامَ يخونْ

نريدكِ
يا كلَ رغبتِنا في الهروبِ من الحبِ
لا حبَّ إلا وحيث القلوبُ مسيّجةٌ بالمراراتِ
حيثُ مشقّقةٌ بالدموعِ العيونْ

نريدكِ
يا كلَ فكرتنا عن طبيعةِ ما في الحقيقة من ضدها
إنما تتناسلُ في المكتباتِ رفوفُ الظنونْ

٨٣

لم يعد أزرقًا

نريدكِ
يا كل عزلتِنا في دوائرَ سبعٍ من الأرضِ
لسنا بحاجة مقهى بباريس
حتى نخمّن أنّ «الجحيمَ هو الآخرونْ»

نريدكِ
يا كلَ ردّتِنا عن تطلّبِ حريّةٍ غير موجودةٍ
فالسلاسلُ شفافةٌ في الأيادي
ومفتوحةٌ في الهواءِ السجونْ

نريدكِ
يا كل نزعتنا للحفاظِ على غيمة الفقرِ
هذي الطريقُ إلى ذهبِ الروحِ
ممتدةٌ حدّ أنْ لا نهايةَ
نحتاجهُا ألفَ فنٍّ لنعبرَها
والتخفّفُ
سيدُ هذي الفنونْ

تحتهـا، هكـذا يُخيّـل لـك إلى أن تدقـق النظر فإذا بالمسّـلات تطفـو في الهـواء، وإذا بالفيلـة رغـم كل ذلـك تسـير. والآن أغمـض عينيـك وتخيّـل نفسـك أحـد هـذه الفيلـة، عندهـا سـتفهم.

هناك مسـحةٌ مـن الكلبية التشـاؤميّة تكاد تجلل كل شـيء في القصيـدة: الـكلام يقصـر عـن إيصال المعنـى لـذا فهـو خـؤون.. الحـب محكـوم بـالألم عنـد الحرمـان وبالخيبـة عنـد النـوال.. الحقيقـة مفهـوم إجـرائي يحـوي الـشيء ونقيضـه ويبقينـا نـتردد أبـدًا خلـف عتبـة الشـكّ.. الحرية وهـمٌ لأنّ حبنـا للآخريـن يكبّلنـا إليهم ومهما نزعنـا الأصفادَ تبقـى أصفـادٌ أخـرى.. قل مثل ذلـك في الصداقة والاجتماع الإنسـاني.. في السـعي نحـو المكانة.. في التماسـك والثبـات.. لكنّ الشـاعر لا يترجـم نزعته الكلبيـة بالعـزوف عـن كل مـا سـبق، وإنما بـإرادةٍ محمومـة كبيرة:

نريدكِ يا كل حصتنا في السكوت..

نريدكِ يا كل رغبتنا في الهروبِ..

نريدكِ يا كل فكرتنا..

نريدكِ يا كل عزلتنا..

نريدكِ يا كل ردّتنا..

نريدكِ يا كل نزعتنا..

نريدكِ يا كل شهوتنا..

ورغـم أنّ إرادة نقيـض الـشيء عـزوف عـن الـشيء، إلّا أنّ التعبـير بـالإرادة يختلف عن التعبير بالعـزوف، والقلـب الـذي يريد لا يـزال نابضًا أبدًا بالحياة.

إذن عـلى الرغـم مـن المسـلّات الثقيلـة تسـير الفيلـة، وعـلى الرغـم مـن كل القناعـات السـابقة سـوف نعيش، ولـو دقّقنا النظر لعلمنـا أنّ الخيبات

التي تُثقل كاهلنا ما هي إلا كالمسلّات أثقال وهمية، ولقد أحسن الشاعر حين ختم بهذه النغمة الحارّة:

ففي آخرِ الأمرِ

في المنتهى

يا لها من مغامرةٍ أن نكونْ

الشاعر ليس عازفًا عن الحياة وإنّما يريد أن يعيشها غير متعامٍ عن حقائقها. هو لم يهجر قومه، وإنّما يعلم أنّه لن يدرك زرقتهم إلّا من مسافة. هو لم يتخلَّ عن حبيبته وإنّما يريد أن يحبّها أبد الدهر. هو لم ينزع عمقه وإنما يريد أن يغوص إلى أغوار ذاته الأعمق.

كل هذا يُعيدُنا إلى سؤالِ الزرقة الذي شرعتُ به أول الكلام: ماذا يغدو الأزرق حين يخسر زرقته؟ لُججًا خُضرًا. ماذا يغدو البحر حين يتخلّى عن عمقه، وعن علوّه، وعن سعته؟ أوقيانوس!





القسم الرابع

النصوص الأدبية





ناي النأي

شعر: أ.د. صلاح جرار

نأيتِ وكان قربك نور عيني

فأظلمَ كلُّ ما في الخافقينِ

وكنتِ الشمس يغمرني سناها

وكنتِ الورد في حسنٍ وزينِ

نأيتِ وغبتِ في ركنٍ قصيٍّ

فصرتُ أنا وأنت بغربتينِ

وفاض الحزن في الأحداق حتى

تدفّق ماؤه في المقلتينِ

أذوب صبابة والقلب شاكٍ

كأني قد خُلقت بمهجتينِ

وما نسيتْ شذاكِ شغافُ روحي

ولا نسيتْ سناكِ رموشُ عيني

سأذكر منكِ وجهًا من لجينٍ

وأذكر منكِ ورد الوجنتينِ

إذا ما غاب شخصكِ عن عيوني

غدوتُ حليف هجرانٍ وبينِ

ولو أني ملكتُ جناح طيرٍ

لطرت إليك بين سحابتينِ

وخضتُ إليكِ بحرَ الشوق برقًا

وعانقت الردى طوع اليدينِ

لقد أودتْ بيَ الأسقام حتى

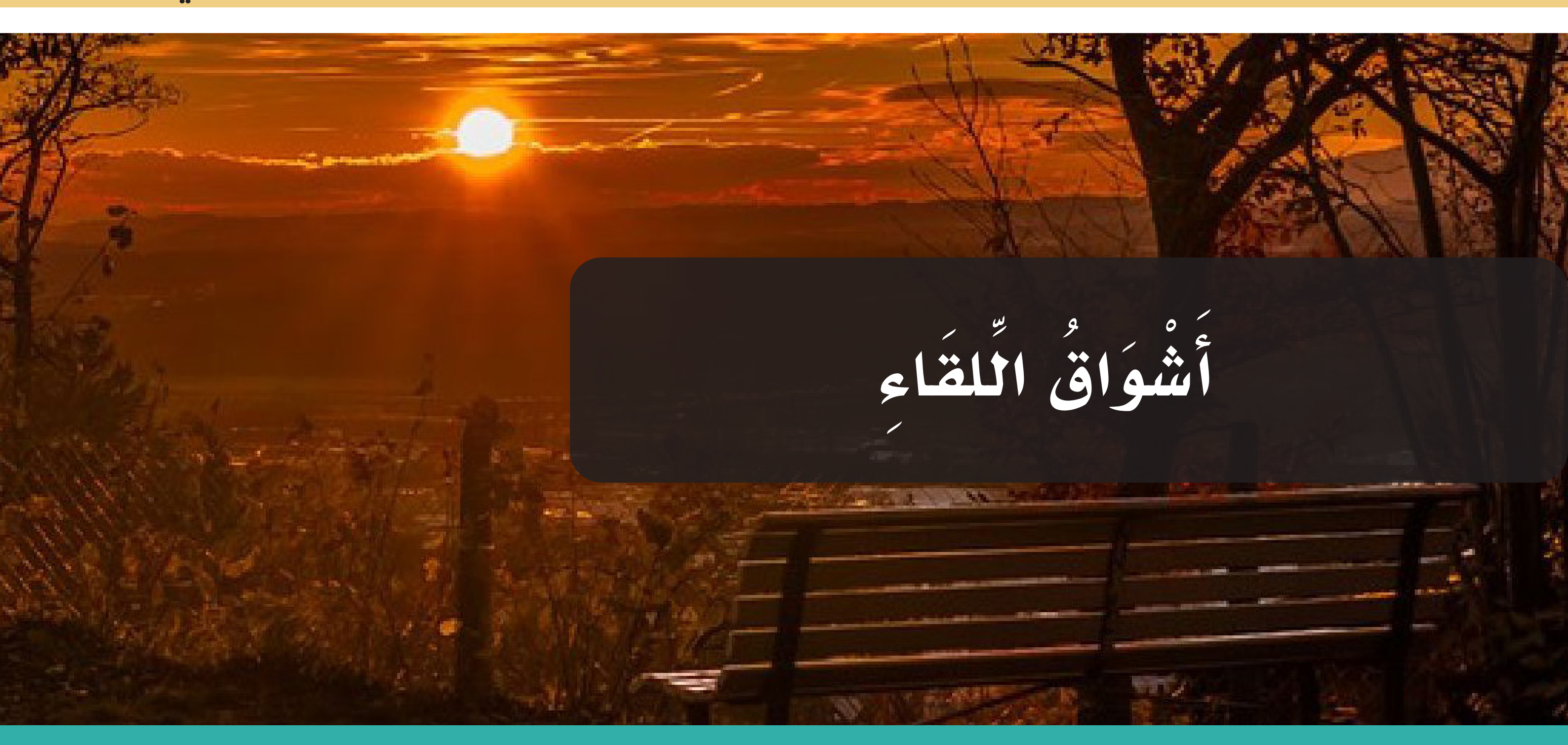
تمادت بينكِ الدنيا وبيني

سأصبر عنكِ والأيام تجري

وما صبري على البلوى بهَينِ

٢٠٢١/١/١





أَشْوَاقُ اللِّقَاءِ

شعر: سعيد يعقوب

مَا كَانَ أَجْمَـلَ أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ فِيْ هَذَا المَسَـاءْ

لَحْنًا سَمَاوِيَّ الرُّؤَى يَنْسَابُ مِنْ قَلْبِ السَّمَاءْ

مَا كَانَ أَرْوَعَ أَنْ نَكُونَ مَعًا لِنَرْسُمَ بَسْمَتَيْنْ

بِهِمَا نُخَبِّئُ مِنْ عَذَابَـاتِ المَوَاجِعِ دَمْعَتَـيْنْ

اهْبِطْ عَلَى قَلْبِيْ هُبُـوطَ الوَحْيِ لِقْنْهُ الكَلَامْ

عَلِّمْهُ مَا هُوَ لَيْسَ يَعْلَمُ مِنْ تَعَالِيمِ الغَرَامْ

خُذْنِيْ إِلَيْكَ إِلَيْكَ قَدْ طَالَ اشْتِيَاقِيْ يَا حَبِيبِي

لِبَلَاغَـةِ العَيْنَيْنِ، لِلْآمَالِ، لِلْأُفْقِ الرَّحِيــبِ

شُرُفَاتُ رُوحِيْ لَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِرَجْعِ الذِّكْرَيَاتِ

مُتَمَـاوِجَـاتٍ كَالسَّـنَـا مُتَنَاقِضَاتٍ كَالحَيَاةِ

هَلْ تَذْكُرِينَ الشِّعْرَ وَالأَوْتَارَ وَالنَّغَمَ الحَزِينْ

كَأْسًا مِنَ اللَّذَّاتِ تُمْـزَجُ بِالهَنَـاءَةِ وَالأَنِـينْ

مَا كَانَ أَحْلَى لَـوْ أَتَيْتِ إِلَيَّ طَيْـفًا مِنْ رَجَـاءْ

مُتَوَشِّحًا أَلَقَ المُنَى // يَسْعَى بِكُلِّ الكِبْرِيَاءْ

وَأَنَا وَأَنْتِ قَصِيـدَةٌ كَتَمَتْ خَفَايَا سِرِّهَا

أَوْ لَيْلَةٌ طَالَتْ وَلَمْ تُدْهَمْ بِطَلْعَةِ فَجْرِهَا

لَا تَتْرُكِينِيْ هَا هُنَا وَحْدِيْ يُحَاصِرُنِيْ الغِيَابْ

ظِلًّا يُنَادِمُ صَمْـتَهُ، أَوْ كَالسُّـؤَالِ بِلَا جَوَابْ

أَغْصَانُ قَلْبِيْ بَعْدُ مَا جَفَّتْ يُغَازِلُهَا النَّسِيمْ

تَهْفُو إِلَى الآتِيْ الجَدِيـدِ وَكَمْ تَحِنُّ إِلَى القَدِيمْ

فَلْتُقْبِلِي بُشْرَى وَفَجْـرًا بَاسِـمًا ظِلًّا ظَلِيـلَا

وَعْدًا يُطِيلُ عَلَى فَمِيْ بِسَخَاءِ كَفَّيْكِ الهُطُولَا

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ اللِّقَاءَ بِكُلِّ أَشْوَاقِ اللِّقَاءْ

رَغْمَ القُنُوطِ فَإِنَّ فِيْ عَيْنَيَّ نَهْرًا مِنْ رَجَـاءْ



غرناطة

شعر: يوسف الضباعي

هذا الخريفُ أتاكَ ياطللُ

فإلى متى تنأى وترتحلُ

وتسيرُ من بلدٍ إلى بلدٍ

أقصى وزادكَ في النوى علَلُ

حملتْكَ نحوي كلُّ سابحةٍ

ورمتكْ في أحضانها السُبُلُ

عيناكَ.. لا أدري.. بلا ألقٍ..

عُذرًا.. ووجهكَ خائفٌ وَجِلُ

أنكرتُه توًّا وأعرفُهُ

نَشوى به أيامنا الأُولُ

أين البريقُ وكنتُ أنشدهُ

أين الهوى والحبُ والغزلُ؟

ودمشقُ كيف تركتها.. بَرَدَى..

هل سالَ فيهِ الخمرُ والعسلُ؟

والنيلُ.. والأهرامُ تحرسهُ..

والسهلُ.. والبيداءُ.. والجبلُ؟

والرَّوضةُ الغنَّاءُ.. نخلتُها..

والزَّهْرُ.. والزِّيتونُ.. والحُلَلُ

وَبَنو أبيكَ.. ألستَ تذكرُهمْ..

ما حالهم.. قلْ لي.. وما فَعَلُوا؟

«الطيف»: غرناطةُ يا قلبُ معذرةً

ذابَ الكلامُ وضاعت الجُمَلُ

هل أخطأَ العصفورُ روضتَهُ

أم أنكرتْ أهدابها المُقلُ؟

طالَ انتظارُ الشوقِ يا أملًا

تغفو على أعتابهِ القُبَلُ

ما زِلتُ أنظِمُ كلَّ قافيةٍ

أدنو إليكِ بها وأبتهلُ

هي مثل هذا الطيفِ ناقصةٌ
إلا على خديكِ تكتملُ
مذْ غادرَ العربيُّ جنّتَهُ
وجراحهُ تعلو وتتصلُ
من أين أبدأُ؟ كلّها غُصَصٌ
في كلِّ شبرٍ منه تنتقلُ
وعلى ضفافكِ عند عودته
بكت الحياةُ وقهقهَ الأجلُ
ولغتْ علوجُ الفرسِ في دَمنا
وتقاسمتْ أطرافَنا الدولُ
بغدادُ فيها ألفُ مُبكيةٍ
ودماؤنا في القدس تُبتذلُ
وهناكَ في صنعاءَ يضربُنا
«لاتٌ» ويَصلبُ وجْهَنا «هبلُ»
ودمشقُ.. أين دمشقُ؟ لا بَرَدَى
يجري.. ولا ماءٌ ولا بللُ
يبستْ زهور الشامِ في يدنا
وذوى بها عودُ الندى الخَضِلُ
وعلى رمالِ الشرقِ ما فتئتْ
تتجاذبُ الأهواءُ والمللُ
عللٌ تمادتْ في غياهبها
وتقطعتْ من دونها الحيلُ
وأنا.. وهذا الطيف.. يتبعني
ظلي.. فلا خيلٌ.. ولا إبلُ
وحدي على أملٍ قذفتُ به
قبلي لعلّي قبله أصلُ
ما زلتِ يا حسناءُ فاتنةً
وعلى جبينكِ يشرقُ الأملُ
إنّي أسيرُ إليكِ تحملُني
كفُّ الرياحِ وخافقٌ ثَملُ
والشوقُ تدنو بي مراكبه
نحو الضفافِ وتومضُ الشُعَلُ
أنا هاهنا روحي متيمةٌ
مذ خطها في لوحه الأزلُ
وعلى ثراكِ تعودُ ذاكرتي
الأولى وهذا الجرح يندمِلُ







أنا راهبٌ

(إلىٰ سيد الثقلين محمد بن عبد الله ﷺ)

شعر: عبد الستار عبد الجبار كعيد

أنا راهبٌ وأجول في الصحراءِ
أسقي عطاشى أحرف الشعراءِ
وسفائني عصف الرمال وسفوها
لغتي الغضا.. زوادتي أنوائي
أغرى التصوف رحلتي فحقائبي
ملأى بعشب توثبي وسمائي
تبتلُّ أسراب الحقائق من دمي
فأنا لها... يا غربتي ولوائي
أرحام أهلي حرة وعروبتي
حسراءَ في لغتي وفي أسمائي
يا عنـزة الأجداد غذي ركبها
هَذي الجِمـال يتيـمة الحدّاءِ
من أشرف الخطوات هدأة خفّها
وأجـلّـهـا مـزدانة بـرغاءِ

يا أنت أرهقني تمرُّد صهوتي
فرميتُ شوطي في سدى أنحائي
متردد الـمرقى ملأت مراكبي
برمالـها متغطـرس الأشـلاءِ
فإذا بحتفي يستثير مظنتي
ويـلفّـها بهواجـــسي وردائي
ويلوح لي صوت اللقاء مغردًا
طيفًا بليغ الهمس والإصغاءِ
(أمحمديَّ) العشق ما لك حائرًا
قرِّب فهذا الغار ليس بِناءِ
وتسلّق الجبل المنار فصخرهُ
ثرَّ البهاء منـزه الأضـواءِ
وأرح نياقك هاهنا تلق المدى
خضلًا تؤطره مرايا الماءِ

فهنا سيعرب ما تغنى قارئٌ
عربيٌ ابْنُ الضادِ وابنُ الظاءِ

من هاشم الملأ العظيم ثريده
بالكبرياء وأكرم الأبناءِ

تزدان أسفار المسير بجرحه
كضفيرة تزدان بالحناءِ

أثماره شهب وسؤر كؤوسه
ثمر الفداء وصادق الأنباءِ

هذا سليل البدو مكي الخطى
نزلت به الأعراب في الجوزاءِ

وجلت به صحف صحائف غيره
بسجيعة قرشية عرباءِ

عبرت بنوه اليم فانشقت لهم
سدف البحار بأقمر غراءِ

نهجوا البلاغة فانحنى لخطيبهم
سر الكلام وشامخ الخطباءِ

وعصاته من يثرب جوالة
للعشب يسعى هائما بثغاءِ

مضغت ثعابين العتاة وسحرهم
فتألبوا وارتدّ زيف خفاءِ

حتى إذا نفقت كلاب قصورهم
أسرى به كوخ إلى العلياءِ

الله ما أحلى مرابع ضأنه
تهب الحليب المحض للفقراءِ

أنا راضع فيها رؤى وطفولة
وسقتني أمٌ مضغتي بوفاءِ

(قالت لي السمراء) شد رحالنا
لمحمد النجوى وغار حراءِ

فهو الضمين لما عشقت وناقة
غزرت هدًى صوفية الإغراءِ







لا تنسَ ربَّك

(تأصيل وتذييل)

أ.د. عبد الحكيم الأنيس

كتبَ إليَّ الأخُ الكريمُ الفاضلُ المحقِّق الشيخ محمد بن مهدي العجمي (من الكويت) قائلًا:

ومن الأبيات الآسرة للأديب محمد بن أحمد يوره الديماني رحمه الله[1]:

لا تنسَ ربَّك في ريٍّ ولا ظمأٍ

ولا بحضرة ضرغامٍ ولا رَشَأِ

واذكرْهُ مُنفردًا يَذكرْك مُنفردًا

واذكرْهُ في ملأٍ يَذكرْك في ملأِ

وقد نشرتُ هذين البيتين عبر الوتس اب، واطلعَ عليهما مجموعة من أصحاب الفضيلة العلماء الأدباء، فأضافوا مذييلين ما أُوردُه هنا على ترتيب وصوله إليَّ:

-قال الأستاذ محمد الروكي (من فاس):

واذكرْهُ في كلِّ حينٍ دائمًا أبدًا

يُطهر القلبَ مِنْ رانٍ ومِنْ صَداٍ

فالذكرُ للقلب يُذكيه ويَشحنهُ

فيطمئنُّ ويمضي وهْوَ لم يُسئِ

والروحُ مرتعُها القرآنُ يرفعُها

فيرتقي البدنُ المخلوقُ مِنْ حمإٍ

والذكرُ للعبد كنزٌ لا نفادَ له

فاظفرْ بكنزك مِنْ نقد ومِنْ نسإٍ

-وقال الشيخ محمد كلاب (من غزة):

واشرحْ فؤادَك بالتسبيحِ مجتهدًا

واستغفر اللهَ مِن ذنبٍ ومِن خطأ

---

(١) وهما في مجموع شعره (ص٢١).

-وقال الشيخ قاسم محمد جاسم (من بغداد):

تُضيء بالنيّرين الأرضُ مشرقةً

وذي القلوبُ بغير الذكر لم تُضئِ

-وقال د. ثائر الحنفي (من سامراء):

هو النَّصيرُ لعبدٍ قامَ مُبتهلًا

يدعوهُ بالليل مِنْ ضرٍ ومِنْ رُزءِ

-وقال د. بدر العمراني (من طنجة):

وأُنْسُ سرّك يزكو بالهُدى طرَبًا

بالوصْل في سَكَنٍ يهفُو إلى لَجَأ

-وقال د. أبو بكر الشهال (من طرابلس-لبنان):

وذكرُ ربِّكَ للأرزاقِ مجلبةٌ

فلا تكنْ جاحدًا كالحالِ مِنْ سبإِ

-وقال الشيخ محمد عبدالحميد عبطان (من العراق):

واقصدهُ في هدأةِ الأسحارِ مُرتجيًا

لأمةِ المُصطفى عَوْدًا لمبتدإِ

-وقال الشيخ يحيى محمد الخضر ما يابى الشنقيطي (من موريتانيا):

منْ جاءَ لله مَشيًا قَصْدَ مغفرة

أتاهُ هرْولةً في ثابت النبَإِ

-وقال الشيخ أحمد بن عباس المسّاح (من جدة):

واللهُ في مُحكم التنزيلِ أخبرَنا

فاسمعْ بقلبِك ما قدْ جاءَ مِنْ نبإِ

إنْ تذكروا اللهَ حقًا فهْو يذكرُكمْ

والمرءُ بالذكرِ في حصنٍ ومُلتجإِ

-وقال السيد ناجي الراوي الرفاعي (من العراق):

وحقِّق القصدَ بالتجريدِ وافنَ به

تفزْ بقاءً بلا جُوعٍ ولا ظمإِ

-وقلتُ (عبدالحكيم الأنيس):

يا ر بِّ أنتَ لِما أرجوهُ مِنْ «خبَرٍ»

وقد دعاكَ بحُسْنِ الظنِّ «مُبْتَدِئي»





بيت الشجرة

قصة: بيان أسعد

هناك شجرة تسكن في ذلك البيت الذي يقابل بيتنا، البيت فارغ تمامًا وليس ثمة أحد غيرها. لقد لفت نظري صدفةً كما تحدُث لي الأشياء غالباً، أردت أن أسدل ستائر الغرفة ثم لمحتُها تتحرك في ذلك البيت، كانت نوافذه كلها مفتوحة، والعتمة تسود كل الغرف، البيت هادئ تحوطه مجموعة من الأشجار، لا أرى أحداً يدخل أو يخرج من البيت، وثمة غرابان وحيدان يمران على سطحه، ينعقان كثيراً، ثم يقفزان إلى بيوت بعيدة.

هناك شيء يحدث لتلك الشجرة، لقد استطالت كثيراً ثم توقف نموها حين وصلت النافذة، وبعدها هاجرتها كل العصافير وأتت موزعة على بيتنا وعلى البيوت التي تجاورنا وتقابلنا. إنها المرة الأولى التي أرى فيها شجرة تسكن بيتاً كبيراً وحدها، وتتخذ غرفة واحدة منه لا غير، إذا لم تكن موجودة، كنت سأتخيل ساكني البيت؛ تتجمع العائلة المكونة من أربعة أفراد حول المائدة بهدوء كل يوم، طاولة صغيرة خشبية عتيقة، طعامهم يتكرر ذاته كل يوم، يأكلون بصمت، لدى الجميع ذات الشكل، ذات الطريقة في الأكل، ذات الاهتمامات، أولاً الجلوس على الكراسي الوحيدة في البيت إذ لا يوجد أثاث فيه غيرها، يقرؤون رواية العمى بنفس السرعة، لهم ذات الانفعال بعد كل موقف يحدث، إذا رأيت وجوههم في أول الرواية تجدها نفسها، يرفعون حواجبهم باندهاش ثم ابتسامة خفيفة تمر، يزيحون نظرهم إلى النافذة (ولا يرونني)، ثم

يقررون الاستماع إلى إنريكو ماسياس وينتهون إلى أغنية له مع الشاب مامي، يرتشفون القهوة في نفس السطور، ثم حين ينتهون من الرواية، يذهبون إلى غرفة النوم ويعودون إلى صمت غريب وهائل.

لا أعلم... صارت الشجرة تأخذ كل وقتي وأكثر ما يهمني في عاداتي اليومية، أستيقظ لكي أراها، أطمئن عليها، ولكن يكفي أن أستيقظ وأراها، حتى مع الوقت صرت لا أتزحزح من مكاني، أبقى متسمرة أتأملها من النافذة.

وأثناء ذلك كنت أفكر بماذا تشعر امرأة تعرضت للخيانة؟ بماذا كان يفكر زوجها وهو ينظر إلى المرأة الأخرى، كيف كان يتأمل وجهها، كيف كان وجهه. إن ذلك عمق أيضاً، لا أحد يحترس إلى اكتشاف الأمور العميقة في أدق تفاصيل الحياة، صرت أحس أن هناك عجزًا بي، لماذا يمكن أن أفكر بكمال الأشياء، بتمام الأشياء، ترتيب الأشياء إلى نهايتها. المرأة أشبه بقاموس يقطر تفاصيل، والرجل أهل لذلك. لماذا يمكن لرجل أن يترك التفكير بامرأته الجديدة ويفكر بشجرة تقطن بيتاً! لماذا أنا أفكر بهذا الآن؟! ربما لأن الأنثى دائماً يشغل بالها الحب، تفاصيله، إتمامه، تمزيقه، تخطيه، إلغاؤه، والانزياح إلى شيء آخر، مغاير تماماً.

اليوم حذرت الأرصاد الجوية من تكون الضباب. ونسيت أن تحذر من تكون الضباب على نافذتي، استيقظت منزعجة عندما رأيت الغبش على النافذة وعلى نافذة جارتي الشجرة. وذلك ما دعاني إلى التفكير في حياتها أكثر، ماذا تفعل شجرة وحدها في بيت واسع مثل هذا؟ للحظة ما صرت أقارن بيننا، لا أعلم لماذا؟ أنا الآن في وحدتي أغلق الستائر وأحفل بمشاهدة فيلم جريمة مثلاً، أو بترتيب خزانتي على وقع موسيقى لـHusno، أو شرب عصير ليمون احتراساً من الإصابة بالبرد، أو الرقص، أو شتم الحياة، أو إعداد فيتوتشيني، أو انتظار زوجي بصمت دون فعل أي شيء. ترى هل للشجرة عائلة؟! ترى ماذا تفعل الآن؟

في أحد الأيام اتصلت بي صديقتي تخبرني أنها قادمة، أنهيت الاتصال وكالعادة كنت أنظر من النافذة، فجأة ارتعشت، وصرخت، كانت هذه هي المرة الأولى، أغلقت الستارة، أذكر إلى الآن التصميم الذي كنت به عندما قررت إغلاقها، دقت صديقتي الجرس وفتحت لها الباب، ودخلت وتحدثنا كأن لم يحدث شيء. في الأوقات الأخرى خلال أسبوع كامل أشغلت نفسي بأشياء أخرى، نظفت النوافذ، وغسلت جميع الملابس التي في الخزانة، ومسحت الغبار عن جميع أثاث البيت، كنت كل يوم أعد لنفسي برنامج أعمال أقوم بها. إلى أن أتى يوم ونسيت



أمرها بالكامل، كان الأمر مفاجئاً لي، ولكنه ما لبث أن أصبح حقيقة، ثم أصبحت أهتم بالأشياء الحقيقية، وزاد إيماني بكل شيء أمسكه بيدي، حتى بجهاز التحكم، صرت لوهلة أحب أن أثرثر، أضحك على كل الأشياء السخيفة، أتحدث بمواضيع سهلة ومطروحة باستمرار، ألتزم بقواعد كثيرة يلزمني بها الأشخاص المقربون بلا داعٍ وحتى الذين لا أعرفهم، إن كل شيء قد أصبح بسيطاً، حتى إنني صرت حساسة بصورة كبيرة، أتوتر من أي موقف، أستسلم لرأي غيري المعارض تماماً، أفهم مدلول الكلمات الموجّهة إلي على طريقتي، حتى صار الجميع يؤلمني، وصارت الاجتماعات العائلية تتعبني، صار كل شيءٍ جميلٍ سيِّئاً بطريقة كبيرة، صرت أتطلع إلى الانتهاء من كل شيء والعودة إلى ذاكرة واسعة لا محدودة، وعادت فكرة الشجرة تنبض برأسي، صرت أراها على أصابعي بعد كل شيء ألمسه، وعلى كل شيء أنظر نحوه، في الأحلام، وتلاحقني، تدفعني أحياناً وتسير في مكاني، جذورها دخلت في جسدي، أغصانها تصفعني، إنها داخلي، وأنا خارجي تماماً.

ما عدت أستقبل أحداً ولا أهتم لأحد، صرت شخصية مغايرة تماماً، لا تجذبني أي فكرة عن ممارسات الحياة، لا أحمل في ذهني سوى فكرة واحدة، أن أفهم حياة الأشجار، أتخيلني شجرة صنوبر مثلاً، ما هو شعوري وأنا أستطيل؟! ودون أن أدري رفعت جسدي على أطراف أصابعي، وقفت مدة طويلة هكذا، رفعت رأسي ويدي كأنني سأحلّق، ثم استدركت الأمر وعدت.

ثم فجأة قررت أن أخرج، أن أواجهها، من أي جهاتها، أغلقت الستارة بحزم، وبدلت ثيابي، حملت هاتفي، لم أعلم ماذا سأحمل أيضاً، أغلقت البيت بالمفتاح مرتين، وتأكدت أنه مغلق، طلبت المصعد، كل شيء إلى الآن يسير كما يجب، اتصلت بزوجي لأخبره أنني خارجة وأنني ربما سأتأخر، ثم سرت باتجاهها، لا أعلم لِمَ المسافة بدت أطول مما هي من النافذة! طارت الغربان، وهدأ البيت، دخلت البيت، كم هي كبيرة! نظرت إليها طويلاً، وجفت الكلمات. أخيراً التقينا، أردت أن أصافحها، ولكن لم أدرِ كيف!

